الفصل الثانى

بِرّ الوالِدَيْنِ ..

● **مقدمة فى بر الوالدين :**

قال النووى فى المنهاج : قال العلماء : البر يكون بمعنى الصلة وبمعنى اللطف والمبرة وحسن الصحبة والعشرة وبمعنى الطاعة ، وهذه الأمور هى مجامع حسن الخلق • وقال ابن الأثير فى النهاية : البر ـ بالكسر ـ الاحسان وهو فى حق الوالدين وحق الأقربين من الأهل ضد العقوق وهو الاساءة اليهم والتضييع لحقهم يقال : بر يبر فهو بار وجمعه برة ، وجمع البر : أبرار •

وقال ابن قرقول فى المطالع : البر اسم جامع للخير ، وبر الأبوين كله من الصلة وفعل الخير والتوسع فيه واللطف والطاعة •

والبر فى استعمال الشرع كلمة جامعة لكل أصناف الخير ويراد منه ما زاد على حدود التقوى ، فهو مرتبة فوق التقوى ودون مرتبة الاحسان •

وبر الوالدين : هو الاحسان اليهما ، والقيام بحقوقهما ، وتكريمهما ، والتزام طاعتهما فى غير معصية لله تعالى ، واجتناب كل ما فيه اساءة لهما ، وفعل ما يرضيهما ، فمن قام بهذا استحق رضا الله تعالى ، ومعونته وتوفيقه ..

* * *

بـر الوالدين

ان عطف الوالدين على الولد من أبرز صور الرحمة ، وهى تفرض على الولد أن يقابل رحمة والديه له بأن يرحمهما ، فيخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، ويدعو لهما بالمغفرة رحمة بهما .

ان رحمة الوالدين بأولادهما ، عطاء بلا حدود ، عطاء لا يلاحظ فيه ترقب العوض ، وفطرة فطر الله خلقه عليها ، ولذلك كان بر الوالدين من أعظم واجبات الصلة الاجتماعية ، ولذلك كان عقوق الوالدين مقاربا لدرجة الشرك بالله ، وكان الأمر بالاحسان للوالدين عقب الأمر بعبادة الله والنهى عن الاشراك به[1] .

* * *

● **الاحسان للوالدين فى القرآن :**

١ ــ قال الله تعالى فى سورة « النساء » :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا »(٢).

ففى هذا النص نلاحظ أن الله تبارك وتعالى يأمر بعبادته ، وينهى عن الاشراك به ، ويتبع ذلك بالأمر بالاحسان للوالدين ، ثم يأمر بوجوب الاحسان لأصناف من الناس تستدعى أحوالهم الاجتماعية ، أو قراباتهم ، أو قرب الصلة بهم فى المسكن أو فى الصحبة ، زيادة الاحسان اليهم والشفقة عليهم والرحمة بهم .

ان هذه الآية من الآيات الكريمة التى توجه لواجبات الصلات الاجتماعية ، التى تعتبر الرحمة من أعظم دوافعها فى أعماق النفس الانسانية .

٢ ــ وقال تعالى فى سورة (العنكبوت) :

« ووصينا الانسان بوالديه حسنا ، وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، الى مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون »(٣) .

---

(١) انظر : الاخلاق الاسلامية واسسها ــ عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى ، ص ١٨

(٢) النساء : ٣٦ (٣) العنكبوت : ٨

ففى هذه الآية يأمر الله تبارك وتعالى بالاحسان الى الوالدين ، والطاعة فى غير معصية الله ، اذ طاعة الله ورسوله تقع فى الدرجة الأولى ، ثم يأتى من بعدها الاحسان الى الوالدين .

٣ ــ وقال الله تعالى فى سورة « لقمان » :

﴿ ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير . وان جاهداك على ان تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من اناب الى ، ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾(١) .

فى هذا النص يوصى الله الانسان بالاحسان لوالديه ، مبينا على وجه الخصوص مبلغ متاعب الأم بولدها ، اشعارا بمبلغ استحقاقها للاحسان والرعاية ، شكرا لها على ما قدمت من عطاء دفعت اليه دوافع الرحمة .

وفى قوله تعالى : **﴿ حملته أمه وهنا على وهن ﴾** صورة رائعة ودقيقة جدا لمبلغ المتاعب التى تتحملها الأم فى حمل جنينها ، والتى تستوجب على الولد أن يشكر لها .

وفى قوله تعالى : **﴿ وفصاله فى عامين ﴾** اشارة الى مدة الرضاع التى تكون فيها متاعب ارضاع الطفل وتربيته متاعب جمة ، وهى فى الغالب تتحملها الأم . وقد يشارك فيها الأب وهذا يستوجب الشكر .

ولما كانت العناية الربانية هى المهيمنة على الانسان منذ نشأته ، والمسايرة له مدى وجوده ، كان من حقه على عباده أن يشكروه .

ولذلك قال الله تعالى فى النص : **﴿ أن اشكر لى ولوالديك الى المصير ﴾**

وأكد الله فى هذا النص ما جاء فى آية « العنكبوت » السابقة مع بعض زيادات فى الدلالات .

---

(١) لقمان : ١٤ ، ١٥

ففى آية « العنكبوت » : ﴿ **ووصينا الانسان بوالديه حسنا** ﴾ وهذا يتضمن مجرد الوصية بالاحسان للوالدين .

أما ما جاء فى سورة « لقمان » ففيه الأمر بالشكر لهما ، بعد التنبيه على متاعبهما ، وجعل هذا الأمر مقرونا بالأمر بالشكر لله : ﴿ **ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير** ﴾ .

ففى هذه الآية تكليف زائد على مجرد الوصية ، وبيان لموجب هذا التكليف .

وفى آية « العنكبوت » : ﴿ **وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما** ﴾ .

أما فى « لقمان » فالنص كما يلى : ﴿ **وان جاهداك على ان تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب الى** ﴾ .

والفرق بينهما أن آية العنكبوت تضمنت أن مجاهدة الوالدين فى الدعوة الى الشرك بالله مجاهدة من مستوى السعى غير الملزم ، ولذلك كان التعبير : ﴿ **وان جاهداك لتشرك** ﴾ أى سعيا لأجل أن تشرك . بخلاف آية لقمان فقد تضمنت أن مجاهدتهما مجاهدة من مستوى الالزام والايجاب ، ولذلك جاءت التعدية فى التعبير بحرف « على » : ﴿ **وان جاهداك على أن تشرك** ﴾ أى : حرصا على أن تشرك ، وهنا كان لا بد من تحديد موقف الولد بوضوح بعد نهيه عن طاعتهما فى هذا الأمر ، وهذا الموقف يتلخص بعنصرين :

الأول : مصاحبتهما فى الدنيا بالمعروف ﴿ **وصاحبهما فى الدنيا معروفا** ﴾ .

الثانى : اتباع سبيل من أناب الى الله ، وهو سبيل المؤمنين ﴿ **واتبع سبيل من اناب الى** ﴾

ومن كل النصوص نستخلص أن الاحسان للوالدين يجب أن لا يكون على حساب حق الله على عباده . ان مبدأ الاحسان للوالدين مبدأ ثابت ولو كان الوالدان كافرين ، ولكن هذا المبدأ لا يصح بحال من الأحوال أن يطغى على مبدأ وجوب الايمان بالله والتزام طاعته واتباع شريعته لعباده .

ومن واجب الولد أن يصاحب والديه الكافرين فى الدنيا مصاحبة بالمعروف ، أى : بما هو معروف بين الناس من أصول الاحسان فى المصاحبة ، وحين يطلبان منه أن يعصى الله فى شىء لم يكن لهما عليه حق الطاعة ، ولم يجز له أن يطيعهما فى ذلك ، اذ لا طاعة لمخلوق مهما كان شأنه فى معصية الخالق جل وعلا ، ان حق الله على عباده أعظم وأجل من أى حق .

٤ ــ وقال الله تعالى فى سورة « الاسراء » :

﴿ وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾(١) .

(النهر : هو النهى الشديد مع الزجر) .

فى هذا النص يأتى النهى عن عبادة غير الله ، والأمر بالاحسان للوالدين مقترنين ، وفى هذا اشارة الى الأهمية البالغة لواجب بر الوالدين والاحسان اليهما ، اذ توحيد الله أصل وأساس وقاعدة الشريعة وأعظمها ، فاذا جاء الأمر ببر الوالدين مقرونا به دل ذلك على مبلغ اهتمام الاسلام بهذا الواجب . وفى قوله تعالى : **﴿ وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ﴾** قوة فى الالزام بهذين الواجبين ، اذ جاء التعبير عن هذا التكليف بعبارة « قضى » ومعلوم

---

(١) الاسراء : ٢٣ ، ٢٤

أن القضاء اذا كان فى مجال التكوين كان لا بد من وقوعه حتما ، فلما جاء فى مجال التكليف دل على شدة الزام المكلفين به ، الى أقصى حد .

وفى هـذا النص اهتمام بحالة الأبوين حينما يبلغان مبلغ الكبر والعجز ، اذ يؤكد فريضة الاحسان اليهما فى هـذه الحالة ، ومن الاحسان اليهما تكريم مقامهما ، وعدم التضجر من أفعالهما مهما كانت مثيرة للتضجر ، وعدم مواجهتهما بما يؤذيهما من القول ، حتى ولا بكلمة « أف » علما بأن الانسان متى كبرت سنه وبلغ مبلغ العجز كثرت مطالبه ، وضاق صدره ، وكثرت مداخلاته فى كل صغيرة وكبيرة ، ومنهم من يرد الى أرذل العمر ، ومع ذلك فالولد مطالب شرعا بأن يقول لكل من والديه مهما كانت حالهما قولا كريما ، وبأن لا يواجههما بأى قول يؤذيهما ، وأدنى ذلك كلمة « أف » التى تشعر بالتضجر .

ويكاد الانسان لا يفى والديه حقهما عليه مهما أحسن اليهما : لأنهما كانا يحسنان اليه حينما كان صغيرا وهما يتمنيان له كل خير ، ويخشيان عليه من كل سوء ، ويسألان الله له السلامة وطول العمر ، ويهون عليهما من أجله كل بذل مهما عظم ، ويسهران على راحته دون أن يشعر بأى تضجر من مطالبه ، ويحزنان عليه اذا آلمه أى شىء ، أما الولد فاذا قام بما يجب عليه من الاحسان لوالديه فان مشاعره النفسية نحوهما لا تصل الى مثل مشاعر أنفسهما التى كانت نحوه ، ولا تصل الى مثل مشاعره هو نحو أولاده الا فى حالات نادرة جدا . وفى قوله تعالى : ﴿ **فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما** ﴾ بتقديم النهى عن الأمر الأخف على النهى عن الأمر الأشد وهو النهر ، وكان الظاهر يقتضى العكس بتقديم النهى عن نهرهما على مواجهتهما بكلمة « أف » ، فى هذا جرى عن سنن العرب فى كلامهم ، اذ يقدمون الأقل على الأكثر ، والأخف على الأشد ، والمفضول على الأفضل ، فهم يقولون : لم يترك قليلا ولا كثيرا ، مع أن من لم يترك القليل

لم يترك الكثير من باب أولى ، وهذا ينسجم مع طبيعة العربى الذى يتدرج من الأدنى الى تصوره فالأدنى ، فالبعيد فالأبعد .

وفى قوله تعالى : ﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** ﴾ رائعة بيانية عجيبة ، فالله تبارك وتعالى يأمر الولد بأن يخضع لوالديه ، ويلين لهما لينا ناشئا عن خلق الرحمة المتغلغل فى قلبه ، ويتذلل لهما تذلل الراحم لا تذلل الضعيف المهين ، فيشبه الرحمة بالطائر ، ويجعل لهذا الطائر ـ طائر الرحمة الخيالى ـ عدة أجنحة ، وأحد هذه الأجنحة يسمى جناح الذل ، واذ يصل القرآن الى هذه الصورة الخيالية الحلوة ، يأمر الانسان بأن يخفض جناح الذل هذا لوالديه .

ويعنى خفض هذا الجناح تقديم كل صور العطف والاحسان والتكريم العملية ، التى يستطيع أن يقوم بها رحمة بوالديه ، من خدمة ومساعدة ، وعطاء وتكريم واحترام ، وسهر ، وصبر ، وبذل وتضحية ، وتواضع وتذلل وتحبب ، فكل ذلك من خفض جناح الذل . وهذه الرائعة البيانية هى من قبيل الاستعارة التخييلية ، لأن المشبه وهو الطائر قد حذف ورمز اليه فى الاستعارة ببعض خواصه وهو الجناح ، ومعلوم أن الاستعارة من روائع الأساليب البيانية ، وتبدو نافعة جدا حينما تقرب الحقائق الفكرية والمعانى النظرية ، اذ تجعلها فى صورة تدرك فى التصور الحسى ، وكذلك حينما تزينها فتعطى من الأثر ما لا تعطيه المعانى الفكرية المجردة .

فقوله تعالى : ﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** ﴾ يحمل من الأثر فى أنفس السامعين ما لا يحمله قول آخر ، كقولنا : واخضع لهما وارحمهما ، أو نحو ذلك .

وفى ختام النص يأمر الله الولد بأن يدعو لوالديه بالرحمة ، وذلك بقوله : ﴿ **وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا** ﴾ وهذا الدعاء وفاء من الولد لوالديه فى حال غيابهما .

٥ ــ وقال الله تعالى فى سورة « الأحقاف » :

﴿ ووصينا الانسان بوالديه احسانا ، حملته أمه كرها ووضعته كرها، وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ، حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وان أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى ، انى تبت اليك وانى أول المسلمين﴾(١)

(فصاله : فطامه) .

فأبان هذا النص ما تتعرض له الأم من متاعب الحمل والوضع وأشار الى متاعب الرضاع .

ووصف المؤمن البار بأنه يسأل الله أن يوفقه لأن يشكر نعمة الله عليه وعلى والديه ، وأن يعمل صالحا يرضيه تعالى ، وأن يصلح له فى ذريته .

٦ ــ وأبان الله تعالى أن بر الوالدين والاحسان اليهما شريعة من شرائع الله فى الأديان السالفة التى أنزلها على رسله السابقين فقال تعالى فى سورة « البقرة » :

﴿ واذ اخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا ... ﴾(٢) .

وأثنى الله على يحيى عليه السلام بأنه كان برا بوالديه ، فقال تعالى فى سورة « مريم » :﴿ وكان تقيا . **وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا ﴾(٣) .**

وحدث عيسى عن نفسه وهو فى المهد طفل بأنه بر بوالدته ، حكى الله عنه ذلك بقوله تعالى فى سورة «مريم» : ﴿ **قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا اين ما كنت واوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ﴾(٤) .**

---

(١) الأحقاف : ١٥ (٢) البقرة : ٨٣
(٣) مريم : ١٣ ، ١٤ (٤) مريم ٣٠ ــ ٣٢

٧ ــ وقال الله تعالى فى سورة « الأنعام » :

﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا ... ﴾(١) .

فدلت جملة النصوص القرآنية على أن الأمر بالاحسان للوالدين مما وصى الله به الانسان ، وهذا يدل على أن هذا الأمر شريعة ربانية منذ أول الشرائع التى أنزلها الله للناس ، وأن الله أخذ الميثاق على بنى اسرائيل بالمحافظة على هذا الواجب وجعله مقارنا لأخذ الميثاق عليهم بأن لا يشركوا بالله شيئا »(٢) .

* * *

● **بر الوالدين والاحسان اليهما فى السنة :**

١ ــ عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : سألت النبى صلى الله عليه وسلم : أى العمل أحب الى الله ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » قلت : ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله »(٣) .

فبدأ الرسول صلوات الله عليه فى هذا الحديث بحق الله على عباده ، وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، والصلاة على وقتها هى أهم أركان العبادة فى الاسلام . ثم ذكر بر الوالدين ، وقد اتبع الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا ما جاء فى النصوص القرآنية التى سبق الاستشهاد بها . ثم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم الجهاد فى سبيل الله ، لأن ركن الجهاد من أهم الأركان التى يرتبط بها نشر الدين واعلاء كلمة الله واقامة الحق والعدل .

---

(١) الأنعام : ١٥١

(٢) انظر : الأخلاق الاسلامية وأسسها ــ عبد الرحمن الميدانى جـ ٢ ص ١٨ ــ ٢٤

(٣) رواه البخارى ومسلم ، واللفظ للبخارى جـ ٢ ص ٧ ، ٨ فى مواقيت الصلاة ــ باب فضل الصلاة لوقتها .

٢ ــ عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رجل : يا رسول الله ، من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال رسول الله : « أمك » . قال الرجل : ثم من ؟ قال رسول الله : « أمك » . قال الرجل : ثم من ؟ قال رسول الله : « أمك » قال الرجل : ثم من ؟ قال رسول الله : «أبوك»[١].

فجعل الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة حقوق كاملة للأم وللأب حق واحد . وقد يقال : ان تكرير حق الأم لتأكيد الاهتمام بضرورة القيام بحقها نظرا الى ضعفها ، لا لبيان مقدار حقها بالنسبة الى حق الأب .

٣ ــ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، قال : أقبل رجل الى نبى الله صلى الله عليه وسلم : فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد ، أبتغى الأجر من الله تعالى ، فقال : « فهل من والديك أحد حى » ؟ قال : نعم . بل كلاهما . قال : « فتبتغى الأجر من الله » ؟ قال : نعم . قال : « فارجع الى والديك فأحسن صحبتهما »[٢].

ــ وعن عبد الله بن عمرو يقول : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم يستأذنه فى الجهاد . فقال : « أحى والداك » ؟ قال : نعم . قال : « ففيهما فجاهد »[٣] .

وهكذا تتعاضد التوجيهات النبوية على ترجيح بر الوالدين والقيام بخدمتهما على الغزو فى سبيل الله فى حالات خاصة ، وهى الحالات التى تكون حاجات الوالدين فيها حاجات ملحة ، ويكون الغزو والقتال فى سبيل الله من الأمور المندوبة ، لا من الواجبات العينية على الشخص الذى تعارض عنده الأمران .

٤ ــ عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، أن النبى

---

(١) رواه مسلم جـ ٤ ص ١٩٧٤/٤٥ كتاب البر والصلة والآداب رقم الحديث (٢٥٤٨) .
(٢) رواه مسلم جـ ٤ ص ١٩٧٥/٤٥ كتاب البر والصلة والآداب .
(٣) نفس المرجع والصفحة .

صلى الله عليه وسلم قال : « ان من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه ، بعد أن يولى »[1] ... أى بعد وفاته .

ان هذا الحديث يبرز رائعة من روائع المفاهيم الاسلامية فى ميادين السلوك الخلقى ، فبر الوالدين لا يقتصر على الاحسان المباشر اليهما ، بل هو يتعدى الى الاحسان الى كل من يسرهما الاحسان اليه .

وفى هذا استبقاء لروابط المودة التى كانت بين الأب وأهل وده ، وانتقالها الى أولاده .

٥ ــ عن أبى بكرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة مثل البغى وقطيعة الرحم »[2] .

ومما لا ريب فيه أن أقرب الرحم للانسان والداه .

٦ ــ عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سره أن يمد له فى عمره ، ويزاد له فى رزقه ، فليبر والديه وليصل رحمه »[3] .

الله الذى بيده ملكوت كل شىء جعل لكل شىء سببا ، وربط الأسباب بالمسببات مثال ذلك : أنه جعل الاستغفار سببا فى نزول المطر وزيادة الرزق والولد . كما جعل بر الوالدين سببا فى طول العمر وزيادة الرزق ، حسبما صرح بذلك الحديث الشريف ، وهذا ان دل على شىء فانما يدل على فضل بر الوالدين .

٧ ــ حدثنا عبد الرحمن بن أبى بكرة ، عن أبيه ، قال : كنا عند

---

(١) رواه مسلم جـ ٤ ص ١٩٧٩/٤ باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما .
(٢) رواه الترمذى جـ ٥ ص ٢٠٨/٥١ كتاب الأدب ــ باب فى النهى عن البغى رقم الحديث (٢٩٠٢) .
(٣) رواه مسلم جـ ٤ ص ١٩٨٢/٦ كتاب البر ــ باب صلة الرحم رقم الحديث (٢٥٥٧) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » ؟ (ثلاثا) : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين . وشهادة الزور » ـ أو « قول الزور » ـ فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت[1] .

٨ ـ عن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ جاء رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقى من بر أبوى شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : « نعم .. الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وانفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل الا بهما ، واكرام صديقهما .. »[2] .

(المعنى : جاء رجل من الأنصار من بنى سلمة يسأل النبى عليه الصلاة والسلام هل بقى عليه من بر والديه شيء بعد موتهما ؟

فأجابه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « نعم » بقى عليك من بر والديك خمسة أمور :

الأول : الدعاء لهما بالرحمة عملا بقوله تعالى : ﴿ **وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا** ﴾[3] .

الثانى : طلب المغفرة لذنوبهما من الله عز وجل .

الثالث : انفاذ عهدهما ، والمراد انجازه ، والوفاء به .

الرابع : صلة الرحم التى لها صلة قرابة بالوالدين .

الخامس : اكرام صديقهما ، بمعنى أن الانسان يحب من كان يحبه والده ، ويقوم لهم بمثل ما كانا يقومان به من الاكرام ونحوه) .

---

(١) رواه مسلم جـ ١ ص ٢٨/٩١ باب بيان الكبائر واكبرها ـ رقم الحديث (٨٧) .

(٢) رواه الترمذى جـ ٥ ص ١٢٩/٣٥٢ باب فى بر الوالدين ـ رقم الحديث (٥١٤٢) .

(٣) الاسراء : ٢٤

واعلم أخى المسلم أن بر الوالدين واجب حتى ولو كانا على غير الدين الاسلامى .

٩ ــ عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها قالت : قدمت على أمى وهى مشركة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، قدمت على أمى وهى راغبة ، أفأصل أمى ؟ قال : « نعم صلى أمك »[١] .

ان منهج الاسلام من أسمى المناهج التى قدمت لاصلاح المجتمعات منذ بدء التاريخ بل الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لأنه منهج الله العزيز الحكيم .

١٠ ــ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من الكبائر شتم الرجل والديه » قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم . يسب أبا الرجل فيسب أباه . ويسب أمه ، فيسب أمه »[٢] .

١١ ــ عن البراء بن عازب ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الخاله بمنزلة الأم »[٣] .

وجاء أيضا فى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم أن « عم الرجل صنو أبيه » .

فدلت النصوص على أن حق الوالدين قائم ولو كانا كافرين ، فعلى الولد أن يحسن صحبتهما ، دون أن يطيعهما فى معصية الله عز وجل ، فطاعة الله لا تقدم عليها طاعة لأحد مهما كان ذا حق .

وحينما يكون الوالدان بحاجة الى مساعدة واحسان ، ومعونة

---

(١) رواه مسلم جـ ٢ ص ٦٩٦/١٤ باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين ــ رقم الحديث (٥٠) .
(٢) رواه مسلم جـ ١ ص ٩٢/٣٨ باب بيان الكبائر واكبرها ــ رقم الحديث (٩٠) .
(٣) رواه الترمذى جـ ٢ ص ٧١٠ ــ رقم الحديث (٢٢٨٠) .

وخدمة ، لا سيما فى كبرهما وعجزهما ، فان خلق الرحمة يفرض الاحسان اليهما ، فكيف وهما أقرب الناس اليه ، ولهما عليه حق التربية والخدمة والعطاء ، وسوابق الفضل الجسيم ، والوالدان حينما يكبران ويصيبهما ما يصيب الانسان فى شيخوخته من عجز وضيق صدر وتدخل فى الصغائر من الأمور ، حتى يردان الى أرذل العمر ، فانهما يحتاجان الى من يصبر عليهما ، ومن أولى بالصبر عليهما من ولدهما ؟!

وبر الوالدين والاحسان اليهما ومصاحبتهما بالمعروف تتطلب بذلا ، ورحمة وحنانا ، وخدمة ، ومخالفة لأهواء النفس ، وصبرا وتسامحا ، وتغاضيا ، وطاعة فى المعروف ، وكل ذلك يحتاج الى مخزون جم من جملة من فضائل الأخلاق .

ومن عظيم فضل الله أنه تعالى جعل لمن يقوم بواجب الشكر لوالديه أن يدخله الجنة ويكفر عنه من سيئاته اذا كان من أهل الايمان . فمن تهيأت له فرصة خدمة والديه أو أحدهما ، والاحسان اليهما وبرهما وهما كبيران عاجزان عن القيام بخدمة أنفسهما ، ففوت على نفسه هذه الفرصة الذهبية العظيمة ، فلم يبرهما ، فهو لا شك خائب خاسر . لقد أتته سوق التجارة الرابحة فلم يظفر بها ، وهبت عليه رياح المغانم العظيمة فلم يغتنمها . وأبان الرسول صلى الله عليه وسلم أن من الكبائر أن يتسبب الانسان بشتم والديه أو أحدهما . وأن من أبر البر أن يصل الانسان أهل ود أبيه بعد موته ، وكذلك أهل ود أمه قياسا ، وأن من البر بالوالدين أن يصل الولد الرحم التى لا توصل الا بهما ، وأن من البر اكرام صديقهما[1] .

* * *

---

(١) انظر الأخلاق الاسلامية وأسسها ـ عبد الرحمن الميدانى جـ ٢ ص ٢٤ ـ ٣٠

فى ثمـرة بـر الوالدين

(أ) قصة اصحاب الغـار الثلاثة :

من ثمرات بر الوالدين استجابة الدعاء ، ومن أمثلة ذلك قصـة أحد الثلاثة الذين أووا الى غار فى ليلة ممطرة ، فانحطت على فم الغار صخرة من الجبـل فانطبقت عليهم ، فدعا كل منهم متوسـلا بعمـل صالح عمله ، وكان عمل أحدهم بره بوالديه ، فاستجاب الله دعاء كل منهم ، ففرج لهم فخرجوا من الغار .

ـ عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، عن رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم ، أنه قال : « بينما ثلاثة نفر يتمشـون أخذهم المطر . فأووا الى غار فى جبل . فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبـل . فانطبقت عليهم . فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله ، فادعوا الله تعالى بها ، لعل الله يفرجها عنكم . فقال أحدهم : اللهم انه كان لى والدان شـيخان كبيران وامرأتى . ولى صبية صغار أرعى عليهم . فاذا أرحت عليهم[1] ، حلبت ، فبدأت بوالدى فسقيتهما قبل بنى . وأنه نأى بى ذات يوم الشجر[2] . فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما . فحلبت كما كنت أحلب . فجئت بالحـلاب . فقمت عنـد رءوسهما . أكره أن أوقظهما من نومهما . وأكره أن أسـقى الصـبية قبلهما ، والصبية يتضاغون[3] عنـد قدمى . فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر . فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأفرج لنـا منها فرجة ، نرى منها السـماء . ففرج الله منها فرجـة . فرأوا منها السـماء .

وقال الآخر : اللهم انه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشـد ما يحب الرجال النسـاء . وطلبت اليها نفسـها فأبت حتى آتيها بمائة دينار .

---

(١) فاذا ارحت عليهم : اى رددت المـاشية من المرعى اليهم .
(٢) نأى بى ذات يوم الشجر : أى بعد المرعى .
(٣) يتضاعفون : أى يصيحون ويستغيثون من الجوع .

فتعبت حتى جمعت مائة دينار • فجئتها بها • فلما وقعت بين رجليها[1] قالت : يا عبد الله ! اتق الله • ولا تفتح الخاتم الا بحقه[2] • فقمت عنها • فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، ففرج لنا منها فرجة • ففرج لهم •

وقال الآخر : اللهم انى كنت استأجرت أجيرا بفرق أرز[3] • فلما قضى عمله قال : أعطنى حقى • فعرضت عليه فرقه فرغب عنه[4] • فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرا ورعائها • فجاءنى فقال : اتق الله ولا تظلمنى حقى • قلت : اذهب الى تلك البقر ورعائها • فخذها • فقال : اتق الله ولا تستهزىء بى • فقلت : انى لا أستهزىء بك • خذ ذلك البقر ورعائها • فأخذه فذهب به • فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأفرج لنا ما بقى • ففرج الله ما بقى »[5] •

هذه قصة هؤلاء الثلاثة أصحاب الغار ، وقد فرج الله عنهم اذ توسلوا اليه بما قدموه من أعمال صالحة :

فالأول : كان عمله الصالح من باب بر الوالدين •

والثانى : كان عمله الصالح من باب العفة عن الحرام •

والثالث : كان عمله الصالح من باب أداء الحقوق الى أهلها بأمانة تامة مقرونة باحسان وفضل •

* * *

(ب) قصة اويس القرنى :

ـ عن أسير بن جابر ، قال : كان عمر بن الخطاب ، اذا أتى

---

(١) فلما وقعت بين رجليها : أى جلست مجلس الرجل للوقاع .

(٢) لا تفتح الخاتم الا بحقه : الخاتم كناية عن بكارتها ، وقولها : بحقه اى بنكاح ، لا بزنا .

(٣) بفرق : وهو اناء يسع ثلاثة آصع .

(٤) فرغب عنه : اى كرهه وسخطه وتركه .

(٥) رواه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم جـ ٤ ص ٤٨/٢٠٩٩ كتاب الذكر والدعاء (٢٧) باب قصة أصحاب الغار الثلاثة رقم الحديث (٢٧٤٣)

أمداد أهل اليمن ، سألهم : أفيكم أويس بن عامر ؟ حتى أتى على أويس • فقال : أنت أويس بن عامر ؟ فقال : نعم • قال : من مراد ثم من قرن ؟ قال : نعم • قال : فكان بك برص فبرأت منه الا موضع درهم ؟ قال : نعم • قال : لك والدة ؟ قال : نعم • قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يأتى عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ، ثم من قرن ، كان به برص فبرأ منه الا موضع درهم • له والدة هو بها بر • لو أقسم على الله لأبره • فان استطعت أن يستغفر لك فافعل » • فاستغفر لى • فاستغفر له • فقال له عمر : أين تريد ؟ قال : الكوفة • قال : ألا أكتب لك الى عاملها ؟ قال : أكون فى غبراء الناس أحب الى •

قال : فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشرافهم • فوافق عمر • فسأله عن أويس قال : تركته رث البيت قليل المتاع • قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يأتى عليكم أويس ابن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن • كان به برص فبرأ منه • الا موضع درهم ، له والدة هو بها بر • لو أقسم على الله لأبره • فان استطعت أن يستغفر لك فافعل » فأتى أويسا فقال : استغفر لى • قال : أنت أحدث عهدا بسفر صالح ، فاستغفر لى • قال : استغفر لى • قال : أنت أحدث عهدا بسفر صالح ، فاستغفر لى • قال : لقيت عمر ؟ قال نعم • فاستغفر له • ففطن له الناس • فانطلق على وجهه[1] •

(أمداد أهل اليمن : هم متطوعة الجهاد الذين كانوا يأتون مددا لجيوش الفتح الاسلامى من مختلف الجهات ، وكان اليمانيون عنصرا مهما يمد بالأعداد الكثيرة من المقاتلين •

لو أقسم على الله لأبره : أى لو حلف يمينا قال فيه : والله ليفعلن الله هذا الأمر ، لأبر الله قسمه ففعل الله ما حلف عليه •

---

(١) رواه مسلم جـ ٤ ص ٤٤/١٩٦٩ كتاب فضائل الصحابة (٥٥) باب من فضائل أويس القرنى رقم الحديث (٢٢٥) •

أكون فى غبراء الناس أحب الى : أى أكون من عامتهم وفقرائهم ومن لا ينظر اليه منهم أحب الى ، وهـذا من تواضعه واخلاصه العظيم رضى الله عنـه .

رث البيت : الرث هو الخلق البالى المهترىء الخسيس من كل شيء ، تقول : ثوب رث ، ورجل رث الهيئة ، ومتاع رث ، والجمع : رثاث .

فانطلق على وجهه : أى ذهب ثم لم يعرف مكانه ، اخفاء لنفسه ، وبعدا عن التظاهر مخافة أن يدخل الى قلبه الرياء) .

* * *

واضح من قصة أويس أنه كان يتمتع بميزتين عظيمتين :

الأولى : أنه كان برا بأمه ، فكان من ثمرة بره بها أن منحه الله مبارك وتعالى الدعوة المستجابة ، فهو امرؤ ـ كما أخبر الرسول صلى الله عليـه وسلم ـ لو أقسم على الله لأبر الله قسمه .

وأويس تابعى لم ير الرسـول صلى الله عليه وسلم ، ولكن الرسول صلى الله عليـه وسلم قد أخبر عنه وعن صـفته قبل أن يأتى ، ثم جاء مع أمداد أهل اليمن كما أخبر الرسـول فهى احـدى معجزاته صلوات الله عليـه .

الثانية : تواضعه واخلاصه لله تعالى وزهده فى الدنيا ، وقد ظهر ذلك بايثاره البعد عن كل ما فيـه ظهور وشهرة ، حرصـا على مرتبة الصـدق والاخلاص لله عز وجل ، وظهر أيضـا برفضـه أن يكتب له أمير المؤمنين عمـر الى عامله فى الكوفة يوصى به ، وقـوله : أكون فى غبراء الناس أحب الى .

ولكن لم يحرمه الله من الذكر الحسن ، فقد زاده الله بتواضـعه رفعة وشهرة وذكرا ، وارتبط اسمه بمعجزة نبوية تروى .

● **أويس خير التابعين :**

ولما كان أويس هذا عظيم الايمان عظيم الاخلاص لله كثير التقوى والبر والاحسان كان خير التابعين ، وقد شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك ، كما جاء فى رواية عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان خير التابعين رجل يقال له أويس • وله والدة • وكان به بياض • فمروه فليستغفر لكم »[1] •

* * *

البر بالأم

فرض الله على الولد الاحسان الى والديه وجعل طاعتهما واجبة فى كل ما يأمران به ، من غير جدل ولا مناقشة ولا تردد الا ما كان منها فى معصية •

قال الله تعالى : ﴿ **ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن وفصاله فى عامين ان اشكر لى ولوالديك الى المصير • وان جاهداك على ان تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا، واتبع سبيل من اناب الى ، ثم الى مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون** ﴾[2] •

أمر الله تعالى بالاحسان الى الوالدين مع تقديم الشكر لهما ، ويعنى هذا أن تطيعهما ، وتخدمهما ، وتنفق عليهما ، ثم تشكرهما على قبول خدمتك وانفاقك ، تشكرهما لأنهما رضيا بك خادما لهما ومنفقا عليهما ، تشكرهما لأنهما جعلاك موضع ثقتهما ومحط آمالهما ، تشكرهما لأنهما بذلا من أجلك النفس والنفيس ، والصحة والراحة ، واكتفيا منك بجزء يسير مما أسدياه اليك من معروف ، وسامحاك بما لهما عليك من حقوق •

---

(١) رواه مسلم جـ ٤ ص ٤٤/١٩٦٨ كتاب فضائل الصحابة (٥٥) باب من فضائل أويس القرنى ـ رقم الحديث (٢٢٤) •

(٢) لقمان : ١٤ ، ١٥

أما الوالدة فقد حملتك فى بطنها تسعة أشهر ، تزيدها بنموك ضعفا ، وتحملها فوق طاقتها عناء ، وهى الضعيفة الجسم ، الواهنة القوة ، ثم أخرجتك فيئست فى خروجك من حياتها ، فلما بصرت بك الى جانبها نسيت الآمها ، وعلقت فيك آمالها ، ورأت فيك بهجة الحياة وزينتها ، ثم انصرفت الى خدمتك ليلها ونهارها ، تغذيك بصحتها ، وتقويك بضعفها ، تخاف عليك رقة النسيم وطنين الذباب ، وتؤثرك على نفسها بالغذاء والراحة ، فلما تم فصالك فى عامين وبدأت بالمشى • أخذت تحيطك بعنايتها ، وتتبعك نظراتها ، وتسعى وراءك خوفا عليك ، وبقيت ترعاك وتحنو عليك حتى آخر لحظاتها من الدنيا • ومن هنا قدمها الله تعالى فى الطاعة على أبيك ، ووصاك بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأكثر مما وصى بأبيك ، والأحاديث فى هذا الشأن كثيرة ، نروى الآن بعضها ليتعظ الأبناء ويعرفوا حقوق أمهاتهم عليهم :

(أ) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « أمك » • قال : ثم من ؟ قال : « أمك » • قال : ثم من ؟ قال : « أبوك »[1] •

(ب) وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت : يا رسول الله ، من أبر ؟ قال : « أمك » • قلت : من أبر ؟ قال : « أمك » • قلت : من أبر ؟ قال : « أمك » • قلت : من أبر ؟ قال : « أباك ثم الأقرب فالأقرب »[2] •

ـ هذان الحديثان يبينان بوضوح ما تستحقه الأم من بر وصلة ، وخدمة وطاعة ، لقاء ما بذلته من جهد وتعب •

(جـ) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رغم أنفه • ثم رغم أنفه • ثم رغم أنفه » قيل :

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، واللفظ لمسلم جـ ٤ ص ١٩٧٤/٤٥ كتاب البر والصلة ـ باب بر الوالدين ـ رقم الحديث (٢٥٤٨) .

(٢) الأدب المفرد ـ للبخارى ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ص ٢/١١ باب بر الأم •

من يا رسـول الله ؟! قال : « من أدرك والديه عند الكبر ، أحدهمـا أو كليهما ، ثم لم يدخل الجنة »[1] .

قال العلماء : سبب تقديم الأم كثرة تعبها عليه وشفقتها وخدمتها ، ومعاناة المشـاق فى حمله ثم وضعه ثم ارضـاعه ، ثم تربيته وخدمته وتمريضه وغير ذلك .

ان فى تقديم الأم على الأب حكمة بالغـة ، فهى ـ بالاضـافة الى ما تبذل من جهـد يفوق جهده ـ بحاجة الى من يعولها ويبرها ، لأنها ضعيفة الجسم عديمة الكسب ، ومن أولى ببرها من ابنها ؟ ومن أحق منه بخدمتها والاحسان اليها ؟

(د) عن سـليمان بن بريدة عن أبيه أن رجـلا كان فى الطواف حاملا أمه يطوف بها ، فسـأل النبى صلى الله عليه وسلم : هل أديت حقها ؟ قال : « لا ، ولا بزفرة واحدة »[2] .

(هـ) عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لم يتكلم فى المهد الا ثلاثة : عيسى ابن مريم وصاحب جريج . وكان رجلا عابدا . فاتخذ صومعة فكان فيها . فأتته أمه وهو يصلى . فقالت : يا جريج ! فقال : يا رب أمى وصلاتى . فأقبل على صلاته . فانصرفت . فلما كان من الغد أتته وهو يصـلى . فقالت : يا جريج ! فقال : يا رب أمى وصـلاتى . فأقبل على صـلاته . فانصرفت . فلما كان من الغد أتته وهو يصلى . فقالت : يا جريج ! فقال : أى رب ! أمى وصـلاتى . فأقبل على صلاته . فقالت : اللهم لا تمته حتى ينظر الى وجوه المومسـات . فتذاكر بنو اسرائيل جريجا وعبادته . وكانت امرأة بغى يتمثل بحسـنها . فقالت : ان شئتم لأفتننه لكم . قال : فتعرضت له فلم يلتفت اليها . فأتت راعيـا كان يأوى الى صـومعته فأمكنته من نفسـها . فوقع عليها . فحملت . فلما ولدت . قالت : هو

---

(١) رواه مسـلم جـ ٤ ص ٤٥/١٩٧٨ كتاب البر والصلة ـ باب رغم انف من ادرك ابويه ـ رقم الحديث (٢٥٥١) .

(٢) الأدب المفرد ـ للبخارى ص ٦/١٣ باب جزاء الوالدين .

من جريج • فأتوه فاستنزلوه وهـدموا صـومعته وجعلوا يضربونه • فقال : ما شـأنكم ؟ قالوا : زنيت بهذه البغى • فولدت منك • فقال : أين الصبى ؟ فجاءوا به • فقال : دعونى حتى أصلى • فصلى • فلمـا انصرف أتى الصبى فطعن فى بطنه • وقال : يا غلام ، من أبوك ؟ قال : فلان الراعى • قال : فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا : نبنى لك صومعتك من ذهب • قال : لا ، أعيدوها من طين كما كانت • ففعلوا ••• »[1] .

وفى رواية البخارى : « أنه مر على المومسـات فرآهن فتبسم ••• فقال له الملك : فما الذى تبسمت ؟ قال : أمرا عرفته ، أدركتنى دعـوة أمى ••• ثم أخبره • هذا جريج العابد الزاهد يبتليه الله تعالى بمروءته وعفته وطهارته ، وهى أعلى شىء عنـده : لأنه لم يجب نداء أمه ولم يلب طلبها • وكثيرا ما تكون الأم فى ضيق أو عسر ، فتستغيث بابنها وهو أحب الناس اليها . فان لم يغثها كان ذلك عقوقا منه • ان بعض الأولاد تناديهم أمهاتهم فيسـمعون ولا يجيبـون ، وكأن فى آذانهم وقرا • أرأيتم أما اسـتنجد بهـا ابنها فلم تنجـده ؟ أو صرخ فلم تسرع اليـه ؟ أليـس من المروءة أن يعاملهـا بمـا تعـامله به ، و« هل جزاء الاحسان الا الاحسان »[2] .

* * *

البـر بالأب

فى القرآن الكريم آيات تأمر ببر الوالدين معا ، وآيات تفرد كلا منهما بالبر ، اذ فى الجمع والافراد دليـل على مدى اهتمام الشـارع بهما ، كل فيما يخصه من جهة ، وفيما يخصهما معا من جهة أخرى • وقد مر معنـا شىء من برهما معا ، وكذلك بر الأم وحدها ، فلنذكر الآن بعض ما جاء فى بر الأب وحده :

---

(١) رواه مسلم جـ ٤ ص ١٩٧٦/٤٥ كتـاب البر والصـلة (٢) ـ باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة ـ رقم الحديث (٢٥٥٠) .
(٢) الرحمن : ٦٠

ان أبلغ مثل يضربه القرآن الكريم فى طاعة الوالد وبره قصة سيدنا اسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وهى قصة شهيرة معروفة ، ذكرها القرآن بايجاز بلاغته .

فقال تعالى : ﴿ فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر . ستجدنى ان شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا ابراهيم . قد صدقت الرؤيا ، انا كذلك نجزى المحسنين . ان هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم ﴾(١) .

وجاءت هذه القصة بالتعبير الانسانى كما شرحها العلماء فى روايات :

كان ابراهيم اذا زار هاجر واسماعيل حمل على البراق ، فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويبيت عند أهله بالشام . حتى اذا بلغ اسماعيل معه السعى أمر فى المنام أن يذبحه ، فلما تيقن ذلك قال لابنه : يا بنى خذ الحبل والمدية ، وانطلق الى هذا الشعب نحتطب . فلما خلا ابراهيم بابنه فى شعب « ثبير »(٢) أخبره بما أمر . فقال : ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى ان شاء الله من الصابرين ﴾ . فلما أراد ذبحه قال له : «يا أبت ، اشدد رباطى حتى لا أضطرب ، واكفف عنى ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمى شىء فينقص أجرى ، وتراه أمى ، واشحذ شفرتك ، وأسرع مر السكين على حلقى ليكون أهون على ، فان الموت شديد ، وان أتيت أمى فاقرأ عليها السلام منى ، وان رأيت أن ترد قميصى على أمى فافعل ، فانه عسى أن يكون أسلى لها عنى . فقال له ابراهيم عليه السلام : نعم العون أنت يا بنى على أمر الله ، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهو يبكى والابن يبكى . ثم انه وضع السكين على حلقه فلم تحز . فشحذها مرتين أو ثلاثا بالحجر ، فلم تقطع ، فقال الابن عند ذلك : يا أبت ، كبنى على وجهى ، فانك اذا نظرت

---

(١) الصافات : ١٠١ ـ ١٠٧

(٢) ثبير : مكان فى مكة وبالتحديد أحد جبال مكة .

فى وجهى رحمتنى ، وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله تعالى وانا لا أنظر الى الشفرة فأجزع ، ففعل ذلك ابراهيم عليه السلام . ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين ، ونودى : « يا ابراهيم . قد صدقت الرؤيا » .

وروى أن ابراهيم لما رأى ذبح ابنه قال الشيطان : لئن لم أفتن عند هذا آل ابراهيم لا أفتن منهم أحدا أبدا . فمثل برجل ، وأتى أم الغلام فقال لها : أتدرين أين ذهب ابراهيم بابنك ؟ قالت : ذهب به ليحتطبا من هذا الشعب . قال : والله ما ذهب به الا ليذبحه . قالت : كلا ، هو أرحم به وأشد حبا له من ذلك . قال : انه يزعم أن الله أمره بذلك . قالت : فان كان ربه أمره بذلك فقد أحسن أن يطيع أمره . فخرج من عندها حتى أدرك الابن وهو يمشى على اثر أبيه ، فقال له : يا غلام . هل تدرى أين يذهب بك أبوك ؟ قال : نحتطب لأهلنا من هذا الشعب . قال : والله ما يريد الا أن يذبحك . وقال : ولم ؟ قال : زعم أن ربه أمره بذلك . قال : فليفعل ما أمره ربه فسمعا وطاعة . ثم اقبل على ابراهيم وقال له : أين تريد أيها الشيخ ؟ قال : أريد هذا الشعب لحاجة لى فيه . قال : والله انى لأرى الشيطان قد جاءك فى منامك ، فأمرك بذبح ابنك هذا ، فعرفه ابراهيم ، فقال : اليك عنى يا عدو الله لأمضين لأمر ربى . فرجع ابليس بغيظه لم يصب ابراهيم وآله بشىء .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن ابراهيم عليه السلام لما أمر بذبح ابنه عرض له الشيطان بهذا المشعر فسابقه فسبقه ابراهيم ، ثم الى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب . ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب . ثم مضى ابراهيم فاذا هو بجبريل ومعه كبش أملح أقرن . فقال : هذا فداء ابنك فاذبحه دونه . فكبر جبريل وكبر الكبش وكبر ابراهيم ، فأخذه ابراهيم وأتى لمنحر من منى فذبحه »[1] .

---

(١) مسند الامام أحمد بن حنبل جـ ١ ص ٢١٤ ، مسند عبد الله ابن عباس .

كان لأسماعيل عليه السلام حين البلاء ثلاث عشرة سنة ، فى سن يبدأ فيها طور المراهقة ، فتطيش سهام الأولاد وتغلب عليهم الرعونة ، ويتولاهم الجموح ويغمر حياتهم اللهو واللعب ، ولا يصدر عنهم عمل بروية ، أو قول بتعقل ، أو تصرف بحكمة ، لا يشعرون بوطأة الحياة ، وثقل العيش ، ومسئولية العيال ، لقد بدأوا يشبون عن الطوق ، وينطلقون من سجن الدار ، وأخذوا يتمردون ليبنوا بأنفسهم شخصياتهم ، ويفرضوا على الناس اعتبارهم .

وهذه صفات معظم الأولاد . فاذا تصرف أحدهم تصرف العاقل ، ونطق نطق الحكيم ، وناقش مناقشة المفكر ، وأطاع والديه طاعة البنان ، كان مثالا للنبوغ والبر والفهم . وهكذا كان سيدنا اسماعيل عليه السلام ، لم يفتنه الشيطان ولم يشككه فى حنان أبيه ، ولم يزغه عن أمر ربه ، أخبره أبوه بالرؤيا ، والرؤيا غير اليقظة ، والايحاء النفسى التلقائى شيء ، والوحى الالهى بواسطة جبريل عليه السلام شيء آخر ، فلم يجزع ولم يخالف ، بل استسلم ، استسلم لأمر الله تعالى ، وأمر أبيه ، ولم تقف به نفسه العالية عند هذا الحد ، بل أعان أباه على الطاعة ، وشجعه على تنفيذ أمر ربه فقال : ﴿ **يا أبت افعل ما تؤمر** ﴾ . أما أنا فقد رضيت بما قدره الله لى ، وما ارتأيته أنت لى ، وان أبت على نفسى فسأرغمها بالصبر ﴿ **ستجدنى ان شاء الله من الصابرين** ﴾ .

وها هو اسماعيل يقلب لأبيه أوجه الرأى فى تسهيل مهمته ليختار منها ما هو أسهل عليه فى تنفيذها ، حتى اذا أسلما الى الله أمرهما ، وطابت النفس بحكمه ، ورضيت بقضائه فداه الله بذبح عظيم .

هذه أروع قصة فى الحياة البشرية ، وأعظم مثل على طاعة الله وطاعة الوالد ، فيها الايمان التام ، والبر البالغ ، فيها حكمة الله ، وشفقة الوالد ، وطاعة الولد ، فيها الاخلاص فى الدين ، والقول اليقين . والصبر المتين ، فيها مثال رائع للانسانية فيما يلى :

كان تحت سيدنا ابراهيم عليه السلام امرأتان : هاجر وله منها اسماعيل ، وسارة وله منها اسحاق . فذهب بهاجر وابنها من بلاد الشام ، حيث طيبات العيش ، ولذات الحياة ، والماء والنبات والطقس الجميل ، الى بلد صحراوى ، لا ماء فيه ولا نبات ، لا زرع فيه ولا ضرع . فتركها هناك ، وأوكل الى الله تعالى أمرهما ثم عاد الى أهله .

أما ما يستنتج من قصة اسماعيل عليه السلام فهو ما يلى :

أولا : تنفيذ ابراهيم أمر ربه .

ثانيا : معرفة هاجر حقوق زوجها ، وواجباته عليها ، وانصياعها لأمر الله تعالى .

ثالثا : رسوخ طاعة الوالد فى نفس اسماعيل رسوخا لا تزعزعه الأهواء والنزعات ووساوس الشيطان .

هذا هو الفارق بين أبناء هذا الزمان وبين اسماعيل عليه السلام ، فارق بين الظلام والنور . والطيش والروية ، والحمق والحلم .

* * *

● **آداب البر بالأب :**

عن أم المؤمنين عائشة رضى عنها قالت : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل ومعه شيخ ، فقال له : « يا فلان ، من هذا الذى معك » ؟ قال : أبى . قال : « فلا تمش أمامه ، ولا تجلس قبله ، ولا تدعه باسمه ، ولا تستسب له »[1] .

وعن هشام بن عروة عن أبيه (أو غيره) أن أبا هريرة رضى الله عنه أبصر رجلين ، فقال لأحدهما : ما هذا منك ؟ قال : أبى . فقال : لا تسمه باسمه ، ولا تمش أمامه ، ولا تجلس قبله »[2] .

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ــ للهيثمى جـ ٨ ص ١٣٧ كتاب البر والصلة .

(٢) الأدب المفرد ــ للبخارى ص ٢٢ ، ٢٣ باب لا يسمى الرجل أباه.

وعن أبى غسان الضبى قال : خرجت أمشى مع أبى بظهرة الحرة فلقينى أبو هريرة فقال لى : من هذا ؟ قلت : أبى . قال : لا تمش بين يدى أبيك ولكن امش خلفه أو الى جانبه ، ولا تدع أحدا يحول بينك وبينه ، ولا تمش فوق أجار أبيك تخفه ، ولا تأكل عرقا قد نظر أبوك اليه لعله اشتهاه ...[1] .

هذا هو النهج الذى يجب أن يسلكه الولد مع أبيه ، يرى نفسه أقل منه فلا يمشى أمامه ، ويوقن أنه قطعة منه فلا يدع أحدا يفصل بينهما ، ويعرف أنه دونه فلا يعلوه فى سطح ولا مجلس ، ويعترف أنه يعيش على فضله واحسانه فلا يتناول ما اختصه لنفسه .

ـ والولد لا يفى والده حقه ، مهما يبذل فى سبيله ، اللهم الا فى حالة واحدة اعتبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم مكافأة له ، فقال : « لا يجزى ولد والده الا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه »[2] .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : رضا الرب فى رضا الوالد ، وسخط الرب فى سخط الوالد[3] .

والوالد لا يرضيه الا أن يرى من ابنه اقبالا عليه بقلبه ونفسه ، وانصياعا منه لأمره ، والسعى لتحقيق ما يسره ويبهجه ، وغاية البر أن تقضى له حاجته من غير أن يسألك قضاءها ، وتقدم اليه مالا يبين لك حاجته اليه ، وتعطيه من غير أن يطلب[4] .

* * *

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ـ للهيثمى جـ ٨ ص ١٣٧ ـ باب ما جاء فى البر وحق الوالدين .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٣١٤
(٣) الأدب المفرد ـ للبخارى ص ١/١١ باب قوله تعالى : ﴿ **ووصينا الانسان بوالديه حسنا** ﴾ .
(٤) انظر : بر الوالدين ـ عبد الرؤوف الحناوى ، ص ٢

● بر الوالدين مقدم على الجهاد فى سبيل الله :

عمت الدعوة الاسلامية أرجاء المعمورة بفضل الجهاد فى سبيل الله الذى بذله المسلمون لاعلاء كلمة الله تعالى • ولولا الجهاد فى سبيل الله فى تلك البقعة الصغيرة التى انطلق منها ، ما انتشر الاسلام ، ولدثرت معالمه فى مدة وجيزة من الزمن •

لم تنتشر تلك الدعوة الا بالحكمة والموعظة الحسنة ، فاذا حال دون انتشارها حائل بعد ذلك أزيح بالقوة ، وهذا هو الذى صارت عليه الدعوة ، وهو رد على من يقول بأن الاسلام انتشر بالسيف •

ومع عظم قدر الجهاد وفضله فى بث كلمة التوحيد ـ التى من اجلها أوجد الله تعالى الكائنات وخلق السموات والأرض وما فيهن ، وأحبط عمل كل امرىء لم يقر بها ـ فقد قدم عليه بر الوالدين وطاعتهما •• ولا يعنى هذا أن برهما اذا خلا من كلمة التوحيد يدخل صاحبه الجنة : لأن البر مع الشرك لا يقام له عند الله وزن ، ولا يغنى منه شيئا اذ جاءت الآية الكريمة صريحة فى ذلك فقال تعالى : ﴿ وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ••• ﴾(١)•

ولكن ايثار برهما على الجهاد دليل على المنزلة التى أنزلهما الله فيها ، وعلى الحق الذى منحهما اياه ، ليعرف الأبناء فضلهما وقدرهما •

واليكم بعض الأحاديث الشريفة الواردة فى هذا الشأن :

(أ) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله ، أى العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة على وقتها » • قلت : ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » • قلت : ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » حدثنى بهن ولو استزدته لزادنى(٢) •

---

(١) العنكبوت : ٨

(٢) رواه البخارى جـ ٢ ص ٧ ، ٨ فى مواقيت الصلاة ـ باب فضل الصلاة لوقتها • ورواه مسلم حـ ١ ص ١/٩٠ كتاب الايمان (٣٦) ـ باب بيان كون الايمان بالله تعالى أفضل •

الصلاة هى الدعامة الأولى من دعائم الاسلام الأربع . وبما أنها أفضل الدعامات وأعظمها منزلة عند الله تعالى ، وكان جحودها كفرا يقتل مرتكبه كالجحود بالأساس ، فقد خصها الرسول صلى الله عليه وسلم بالتقديم لبيان قدرها وفضلها .

(ب) عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم : أجاهد . قال : « لك أبوان » ؟ قال : نعم . قال : « ففيهما فجاهد »[1] .

أى ابذل غاية جهدك فى خدمتهما ، واعمل أقصى ما تستطيع لارضائهما . لأن من عادة الولد أن يعتبر أقل معروف يسديه الى والديه فضلا كبيرا عليهما ، ويخال أنه وفاهما به حقهما . أما هما فيبذلان الغالى والثمين من أجله عن طيب نفس ورضا ، ولا يمنان عليه.

(جـ) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : أقبل رجل الى نبى الله صلى الله عليه وسلم فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغى الأجر من الله . قال : فهل من والديك أحد حى » ؟ قال . نعم كلاهما . قال : « فتبتغى الأجر من الله » ؟ قال : نعم . قال : « فارجع الى والديك فأحسن صحبتهما »[2] .

ان الأجر الذى تطلبه ليس وقفا على الجهاد ولا قصرا على الهجرة . فهناك عمل آخر هو خير وأبقى . يختص بك وحدك . ولا يرتبط بغيرك . ولا يمضيه أحد سواك . فيه الأجر الذى تطلبه . والثواب الذى تبتغيه . ارجع الى والديك فأحسن صحبتهما . والزم خدمتهما . وأطع أمرهما . وأدخل السرور على قلبهما . فان عملت ذلك عدل عملك الجهاد وفاقه .

(د) وعن نعيم مولى أم سلمة قال : خرج ابن عمر رضى الله عنهما حاجا حتى كان بين مكة والمدينة أتى شجرة فعرفها فجلس تحتها ثم

---

(١) رواه البخارى جـ ٤ ص ٤٧

(٢) رواه مسلم جـ ٤ ص ١٩٧٥ كتاب البر والصلة ـ باب بر الوالدين

قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت هذه الشجرة إذ أقبل رجل شاب من هذه الشعبة حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، انى جئت لأجاهد معك فى سبيل الله أبتغى بذلك وجه الله والدار الآخرة فقال : « أبواك حيان كلاهما » ؟ قال : نعم . قال : « فارجع فبرهما » فانفتل راجعا من حيث جاء[1] .

كل هذه الأحاديث تدل دلالة واضحة على أن الله تعالى أعد للوالدين منزلة عالية . وفرض لهما حقوقا كثيرة . وقدم برهما على الجهاد فى سبيل الله رحمة منه وفضلا .

وليس هذا البر فى الحقيقة الا نوع من الجهاد . فهو جهاد بالجسم فى الخدمة . وبالنفس فى الطاعة . وبالمال فى الانفاق . ولا يبدر ذلك الا من أراد الله له الخير وكتبه من السعداء .

لا تعجب أيها الأخ المؤمن أن قدم الله تعالى بر الوالدين على الجهاد فى سبيله . فكلمة التوحيد ـ لا اله الا الله ـ وعبادة الله عز وجل أعلى وأغلى من برهما . ولكن هناك أمر واحد يزيل هذا العجب من نفسك وهو أن بر الوالدين فرض عين . فاذا قصرت فى برهما فمن ذا الذى يبرهما ؟ . أما الجهاد فهو فرض كفاية ـ الا فى حال غزو العدو بلاد المسلمين واعلان النفير العام ـ فاذا صحبت والديك . ولزمت أقدامهما قام بالجهاد غيرك . أما خدمتهما فلا يتولاها أحد سواك .

ولقد اعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم قيام الولد فى خدمة أبويه والسعى عليهما جهادا فى سبيل الله . روى الطبرانى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان جالسا مع أصحابه ذات يوم ، فنظروا الى شاب ذى جلد وقوة قد بكر يسعى ، فقالوا : ويح هذا ، لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقولوا هذا ، فانه ان كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو فى

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ـ الهيثمى جـ ٨ ص ١٣٨ باب ما جاء فى البر وحق الوالدين .

سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على نفسه ليعفها فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان »[1] .

الجهاد في سبيل الله خير تجارة يتعاطاها المؤمن : لأن فيها الفوز في الدنيا والسعادة في الآخرة . ومن أحسن عملا ممن وهب نفسه لله تعالى يبتغي الأجر منه والثواب ؟ لقد تفضل الله فاعتبر المجاهد في كسب المال للانفاق على والديه كالمجاهد في سبيله لاعلاء كلمته[2] .

* * *

بر الوالدين بعد موتهما

آيات الاسراء لم تكتف بالأمر بالاحسان الى الوالدين واطاعتهما واكرامهما وأياديهما بالشكر والثناء فلا ينساهما من الدعاء والاستغفار وطلب الرحمة : ﴿ **رب ارحمهما كما ربياني صغيرا** ﴾[3] . ولا يقتصر على الدعاء لهما في حياتهما فحسب بل بعد موتهما أيضا حيث تنقطع أعمالهما عن الدنيا ، فلا يتزودان بأكثر مما قدما الا بما يهبهما ابنهما ، والسفر طويل ، والزاد مهما بلغ ضئيل ، ولا يسهل السفر ويعزز الزاد الا أحد ثلاثة ذكرها الحديث :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اذا مات العبد انقطع عنه عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[4] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ترفع للميت بعد موته درجته . فيقول : أي رب ، أي شيء هذه ؟ فيقال : ولدك .. استغفر لك[5] .

---

(١) رواه الطبراني : معجم الطبراني الصغير جـ ١ ص ٢٠٧
(٢) انظر : بر الوالدين ـ عبد الرؤوف الحناوي ص ٣٥ ـ ٤٧
(٣) الاسراء : ٢٤
(٤) الأدب المفرد ـ للبخاري ، ص ١٩/٢١ باب بر الوالدين بعد موتهما .
(٥) نفس المرجع والصفحة .

ألا انخير ما يرجو الولد لوالديه المغفرة لهما: ﴿ **رب اغفر لى ولوالدى** ﴾(١) وهو ما جاء على لسان الرسل الكرام ، وطلب الرحمة لهما : ﴿ **رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا** ﴾(٢) ان استغفاره لهما عساه أن يقبل ، لأنه شكر على معروف ، واسداء لفضل ، ووفاء لدين ، والوالدان بعد موتهما فى أشد الحاجة الى الاحسان ، لأنهما أدركا حقيقة الموت ، وذاقا ضمة القبر وهول الحساب ، وندما على كل لحظة قضياها فى حياتهما الدنيا بلهو وعبث ، وتحسرا على ضآلة زادهما من العمل الصالح ، وانقطع رجاؤهما الا من رحمة الله تعالى ، فاذا وصل اليهما خير من ولدهما تلقياه بتلهف وابتهاج كما تتلقى الأرض الجدبة ماء السماء .

ـ وعن مالك بن ربيعة الساعدى قال : كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال رجل : يا رسول الله ، هل بقى على من بر أبوى شىء بعد موتهما أبرهما به ؟ قال : « نعم .. خصال أربع : الدعاء لهما . والاستغفار لهما . وانفاذ عهدهما . واكرام صديقهما . وصلة الرحم التى لا رحم لك الا من قبلهما »(٣) .

فالصلة اذن ما زالت قائمة بينه وبين أبويه ، يطلب الرحمة والمغفرة لهما من الله تعالى ، وينفذ عهدهما ، ويكرم صديقهما ، ويصل رحمه التى هى من قبلهما ، فينال بذلك رضا الله ورضاهما . ومن الوفاء ألا ينسى الانسان المعروف ولا يجحد الفضل . ومن كافأ على معروف أسدى اليه وهو لا يزال يعتبر نفسه مقصرا تجاه صاحبه ، كان أكثر الناس وفاء ومروءة . والولد المغمور بأفضال والديه يرى نفسه عاجزا ومقصرا ومدينا ولو بلغ فى البر أقصاه .

وهذا عبد الله بن عمر يضرب لنا المثل الصالح للولد الصالح ، ويروى لنا عبد الله بن دينار ، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة . فسلم عليه عبد الله . وحمله

---

(١) نوح : ٢٨ (٢) الاسراء : ٢٤

(٣) الأدب المفرد ـ للبخارى ص ١٩/٢٠ باب بر الوالدين بعد موتهما.

على حمار كان يركبه • وأعطاه عمامة كانت على رأسه • فقال ابن دينار : فقلنا له : أصلحك الله ! انهم الأعراب وانهم يرضون باليسير • فقال عبد الله : ان أبا هذا كان ودا لعمر بن الخطاب • وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه »[1] •

هكذا فليكن الأبناء : حب للآباء وبر بهم ، اعتراف بفضلهم وطاعة لهم ، ايثارهم على النفس والأهل والولد ، خفض الجناح لهم ولين الكلام ، ثم امتداد لهذه الرابطة القوية بعد وفاتهم : دعاء لهم واستغفار ، واستمطار الرحمة عليهم والرضوان ، اكرام من كانوا يحبون ، صلة من كانوا يوادون ، حفظ مودة من كانوا يوادون ، حفظ مودة من كانوا يصادقون ، تزويدهم بالصدقات والمبرات ، وأخيرا تقرب الى الله تعالى ببرهم •

وابن عمر رضى الله عنه أوضح لنا هذه المعانى كلها بلقاء ابن صديق أبيه •

ـ عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من البر أن تصل صديق أبيك »[2] •

من الأمور المسلم بها أن ينتقل كثير من طباع الأب عن طريق الدم الى ابنه ، فيأتى شبيها به فى الخلق والخلق[3] ، وينزع فى صغره الى تقليده فى حركاته ، ومشيه وكلامه ، وينشأ على حب من يحب ، وبغض من يبغض ، ويرث عنه كثيرا من الصفات والمزايا ، فما لاءم منه ميوله ورغباته داوم عليه واحتفظ به فى كبره ، ومنه الصداقة والمودة •

---

(١) رواه مسلم جـ ٤ ص ١٩٧٩/٤ باب فضل صلة اصدقاء الأب والأم ـ رقم الحديث (٢٥٥٢) .

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ـ للهيثمى جـ ٨ ص ١٤٧ باب صديق الأب .

(٣) الخلق والخلق : الأولى بنصب الخاء والثانية بضمها .

روى أبو بكر بن حزم ، عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال : كفيتك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الود يتوارث »[1] .

وأما المثل فيقول : « محبة الآباء تتصل بالأبناء » .

ولقد دفع الاسلام الى المحافظة على مودة أصدقاء الآباء ، وحث عليها ليستمر الترابط الأخوى بين الناس ، وتزيد الصلة والألفة ، فتبقى الكلمة متحدة ، والقلوب مؤتلفة ، وتسود الطمأنينة والسلام . وحذر مغبة التقاطع ، وتوعد من يقطع صلة أهل ود أبيه باطفاء نوره ، لأنه حاول اطفاء نور التحابب والتآلف ، فروى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « احفظ ود أبيك ، لا تقطعه فيطفىء الله نورك »[2] .

هذه فرصة سانحة لمن فاته الخير فى حياة والديه فلم يعمل على ارضائهما ، ورحمة من الله واسعة لمن قصر عن مقام الأبرار . والولد يشعر بحسرة كبيرة بعد وفاة والديه ، ولا سيما ان كان مسيئا اليهما فى حياتهما ، لأنه لم يعرف قيمتهما الا بعد زوالهما ، ولقد وصف له هذا الحديث الشريف ما يزيل من نفسه الحسرة والندامة ، وما يعوض عليه ما فاته من خيرات .

ليس بر الوالدين مقصورا بعد موتهما على الدعاء لهما فحسب ، بل للولد أن يصوم صوم نذر ويحج عنهما ، والصوم والحج كما نعلم ركنان من أركان الاسلام ، فاذا علم أحدنا أن على والديه أو أحدهما دينا من صيام قضاه عنهما ، واذا لم يحجا حج عنهما ولو لم يوصياه بذلك . وقيام الولد بأداء هذين الفرضين عنهما يزيل مسؤليتهما أمام الله تعالى ، ويزيد فى حسناتهما ، ولا ينقص من أجره شىء .

---

(١) الادب المفرد ـ للبخارى ، ص ٢٢/٢٢ باب الود يتوارث .
(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ـ للهيثمى جـ ٨ ص ١٤٧ باب صديق الأب .

قال بريدة رضى الله عنه : بينما أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ أتته امرأة فقالت : انى تصدقت على أمى بجارية ، وانها ماتت (أى أمها) فقال : « وجب أجرك ، وردها عليك الميراث » . قالت : يا رسول الله ، انه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها ؟ قال : « صومى عنها » . قالت : انها لم تحج قط أفأحج عنها ؟ قال : « حجى عنها »[1] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن امرأة قالت : يا رسول الله ، ان أمى ماتت وعليها صوم نذر ، أفأصوم عنها ؟ فقال : « أرأيت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدى ذلك عنها » ؟ قالت : نعم . قال : « فصومى عن أمك .. »[2] .

نستدل من هذا على أن الأبوين أولى بالصدقة ، وأن مفهوم الصدقة هنا يختلف عن المفهوم المتعارف بين الناس من حيث أنه جبر للخاطر الكسير ، وسد رمق للبطن الجائع ، وستر لعورة البائس العريان ، وكف للنفس عن التسول والذل ، وتطهير المال وتحصين له ، وانما مفهومها : مكافأة على الاحسان ، واعتراف بالجميل ، وتأدية للواجب وتقرب الى من أنت بحاجة اليه ﴿ **ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم** ﴾[3] . والله الغنى وأنتم الفقراء . من هنا كان صوم الرجل عن والديه ، وحجه عنهما نوعا من جزاء الاحسان بالاحسان ، ومكافأة الهدية بالهدية ، ومبادلة الخير بالخير .

روى عن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما على أحد اذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يجعلها لوالديه ، ويكون لوالديه أجرهما ، ويكون له مثل أجورهما من غير أن ينتقص من أجورهما شيء »[4] .

---

(١) رواه مسلم جـ ٢ ص ١٣/٨٠٥ كتاب الصيام (٢٧) باب قضاء الصيام عن الميت .
(٢) نيل الأوطار ـ للشوكانى جـ ٤ ص ٢٤٩
(٣) التغابن : ١٧
(٤) اخرجه الطبرانى فى الاوسط .

فقوله : « يجعلها لوالديه » معنـاه أن يهب والديه ثوابها ، ولم يقل « يتصدق بها على والديه » لأن الوالدين أعز وأرفع من أن يأخذا صـدقة ولدهما ، اذ أن الله تعالى فرض عليـه نفقتهما بما يكفيهما ، ومن آتاه الله ما يكفيه فقد حرم عليه تناول الصدقة .

عن ابن عبـاس رضى الله عنهما قال : قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : « من حج عن والديه أو قضى عنهما مغرما بعثه الله يوم القيامة مع الأبرار »[1] .

فى تأدية الحج وفاء لحق الله تعالى ، وفى قضـاء الدين تسديد لحق العباد ، ومن وفى عن والديه حـق الله وحق الناس كان أهلا للشكر والاحسـان ، وشـكره من الله تعالى أن يسـجله فى قائمة الأبرار ، واحسانه اليه أن يدخله الجنة .

ان من قصر فى بر والديه فى حياتهما . وندم على ما فرط ، وخاف عاقبـة العقوق ، فبـاب الاحسـان اليهمـا مفتـوح على مصراعيه . فليدخل منه صـائما أو حاجا عنهما . أو داعيا أو مسـتغفرا لهمـا ، أو واصـلا أهل ودهما وواهبا ثواب الخير لهما .

* * *

صـلة الرحـم

ومن ظواهر خلق الرحمة صـلة الرحم ، وقـد أوصى الاسـلام بصلة الرحم ، ونهى نهيا شديدا عن قطيعة الأرحام .

ان من مبادىء الاسلام الاجتماعية الأولى تشبيك جماعات المسلمين فى وحدة جسدية جماعية عامة . وأولى الناس بذلك الأقربون رحما . فلهم حق أخـوة الاسـلام ، ولهم حق قرابة الرحم .

وتكون صـلة الرحم بزيارتهم ، وتفقـد أحوالهم ، واكرامهم ، والاهداء اليهم والتصـدق على فقيرهم باعتباره أحق من الفقير البعيد ،

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ـ للهيثمى جـ ٨ ص ١٤٦ بـاب ما جاء فى الأبرار .

وتكون بتعهد مرضاهم ، ومشاركتهم فى مسراتهم ، ومواساتهم فى أحزانهم ، وتقديمهم على غيرهم فى كل أمر هم أحق به من غيرهم بسبب قرابتهم .

أما قطيعتهم فتكون بهجرهم ، والاعراض عن زياراتهم المستطاعة ، وعدم مشاركتهم فى مسراتهم ، وعدم مواساتهم فى أحزانهم ، وتكون بتفضيل غيرهم عليهم فى الصلات والعطاءات الخاصة التى هم أحق بها من غيرهم .

وقد وصف الله المؤمنين أهل الجنة ، بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويدخل فى ضمن ذلك صلة الرحم ، قال الله تعالى : ﴿ **والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل ...** ﴾(١) .

ووصف الله من لهم اللعنة ولهم سوء الدار بأنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويدخل فى ضمن ذلك قطيعة الرحم . قال الله تعالى :

﴿ **والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ويفسدون فى الأرض اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾(٢) .

وصلة الرحم من موجبات دخول الجنة .

ـ عن أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى ، قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : دلنى على عمل أعمله يدنينى من الجنة ويباعدنى من النار . قال : « تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصل ذا رحمك » فلما أدبر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان تمسك بما أمر به دخل الجنة »(٣) ومن وصل الرحم وصله الله ، ومن قطع الرحم قطعه الله .

---

(١) الرعد : ٢١ (٢) الرعد : ٢٥

(٣) رواه مسلم جـ ١ ص ٤٣/١ كتاب الايمان (٤) باب الايمان الذى يدخل الجنة ـ رقم الحديث (١٤) .

ـ عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلنى وصله الله . ومن قطعنى قطعه الله »[1] .

وهذا كناية عن أن حق الأرحام حق ثابت ، وأن الله يصل من وصل الرحم ، ويقطع من قطع الرحم ، نظرا الى أن الرحم مستجيرة برحمة الله .

ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان الرحم شجنة من الرحمن ، فقال الله : من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته »[2] .

(الشجنة فى اللغة : عروق الشجر المشتبكة ، والمتداخل بعضها فى بعض ، ولا شك أن الرحم متداخلة متشابكة بعضها مع بعض ، كتداخل عروق الشجر المشتبكة . وكونها من الرحمن ، أى اشتق الله لها اسما من اسمه « الرحمن » . وقد جاء هذا المعنى مصرحا به فى حديث رواه أبو داود وقال عه : حسن صحيح) .

ـ عن عبد الرحمن بن عوف قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تبارك وتعالى : أنا الله وأنا الرحمن ، خلقت الرحم وشققت لها من اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها بتته »[3] .

(بتته : أى قطعته ، فالبت فى اللغة : القطع) .

وقطيعة الرحم من العناصر التى تحرم القاطع من دخول الجنة :

ـ عن ابن جبير بن مطعم عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه مسلم جـ ٤ ص ١٩٨١ / ٤٥ كتاب البر والصلة (٦) باب صلة الرحم ـ رقم الحديث (٢٥٥٥) .

(٢) رواه البخارى جـ ٧ ص ٧٣ كتاب الأدب ـ باب من وصل وصله الله .

(٣) رواه ابو داود والترمذى واللفظ له ، جـ ٣ ص ٩/٢١١ باب ما جاء فى قطيعة الرحم ـ رقم الحديث (١٩٧٢) .

قال : « لا يدخل الجنة قاطع »[1] أى قاطع وحم ، وقاطع لما أمر الله به أن يوصل ، وهذا يفضى الى الكفر الذى يتمرد فيه العبد على أمر الله ، ويرفض فيه طاعته .

وليس الواصل لرحمه هو أن يعامل أرحامه بالمثل ، فان وصلوه وصلهم ، وان قطعوه قطعهم ، ولكن الواصل هو الذى اذا قطعته رحمه وصلها :

ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ليس الواصل بالمكافىء ، ولكن الواصل الذى اذا قطعت رحمه وصلها »[2] .

وشكا رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قطيعة قرابة له ، على الرغم من أنه يواصلهم ويحسن اليهم ، ويحلم عنهم ، فأبان له الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ عقوبتهم عند الله على قطيعتهم واساءتهم له ان صدق فيما يقول :

ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رجلا قال : يا رسول الله ، ان لى قرابة أصلهم ويقطعونى . وأحسن اليهم ويسيئون الى . وأحلم عنهم ويجهلون على . فقال : « لئن كنت كما قلت ، فكأنما تسفهم المل . ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ، ما دمت على ذلك »[3] .

(المل : هو الرماد الحار . والمعنى فكأنما تطعمهم الرماد الحار ، وهذا تشبيه لنوع العقاب الذى يجازون به يوم القيامة على قطيعتهم لرحمهم) .

ـ عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله خلق الخلق . حتى اذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا

---

(١) رواه البخارى ومسلم واللفظ له ، جـ ٤ ص ٤٥/١٩٨١ كتاب البر والصلة (٦) باب صلة الرحم ـ رقم الحديث (٢٥٥٦) .
(٢) رواه البخارى جـ ٧ ص ٧٣ باب ليس الواصل بالمكافىء .
(٣) رواه مسلم جـ ٤ ص ٤٥/١٩٨٢ كتاب البر والصلة (٦) باب صلة الرحم ـ رقم الحديث (٢٥٥٨) .

مقام العائذ من القطيعة . قال : نعم . أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى . قال : فذاك لك »[1] .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأوا ان شئتم : ﴿ **فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فاصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب أقفالها** ﴾[2] .

فمن هذه النصوص يتبين لنا أن قطيعة الرحم معصية كبيرة ، واثم شنيع ، وأن عقابها عند الله عقاب مريع ، ونحن نعلم أن الوالدين أقرب الرحم ، نعوذ بالله من سيء العمل ، ومزالق الزلل ، وكبائر الاثم ، وسوء المصير .

ومن لطائف الشريعة أن الصدقة على المسكين تحسب بصدقة ، أما الصدقة على ذى الرحم فتحسب باثنتين ، صدقة وصلة :

ـ عن سلمان بن عامر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم صدقة وصلة »[3] .

وصلة الرحم مما يكافىء الله عليه فى الدنيا ببسط الرزق واطالة العمر ، وهذا ثواب معجل يتسابق اليه معظم الناس ، وهو زائد على ثواب الآخرة الذى ادخره الله للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ابتغاء مرضاته :

ـ عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه »[4] .

(ينسأ : أى يؤخر ، والنسىء هو التأخير) .

---

(١) رواه البخارى ومسلم واللفظ له ، جـ ٤ ص ٤٥/١٩٨٠ كتاب البر والصلة (٦) باب صلة الرحم ـ رقم الحديث (٢٥٥٤) .

(٢) محمد : ٢٢ ـ ٢٤

(٣) رواه الترمذى جـ ٢ ص ٢٦/٨٤ باب ما جاء فى الصدقة على ذى القربى ـ رقم الحديث (٦٥٣) .

(٤) رواه البخارى جـ ٧ ص ١٢/٧٢ باب من بسط له فى الرزق .

والمراد من الأثر : الأجل والعمر ، وذلك لأن عمر الانسان فى هذه الحياة هو الزمن الذى تسجل له فيه آثارة ـ أى أعماله ذات الآثار ـ سواء أكانت خيرا أو شرا • فيكون المعنى المراد من « وينسأ له فى أثره » : يؤخر له فى عمره ، أى يطول له فى عمره •

وأفضل الصدقة وأفضل أعمال البر هو ما كان منها على الأرحام والأقربين ما وجد فيهم ذو حاجة •

ـ عن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن » قالت : فرجعت الى عبد الله فقلت : انك رجل خفيف ذات اليد ، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمرنا بالصدقة • فاته فاسأله : فان كان ذلك يجزى عنى والا صرفتها الى غيركم (تريد بذلك اعطاء صدقتها الى زوجها اذا كان ذلك جائزا) قالت : فقال لى عبد الله : بل ائتيه أنت • قالت : فانطلقت • فاذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجتى حاجتها • قالت : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ألقيت عليه المهابة • قالت : فخرج علينا بلال فقلنا له : ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك : أتجزى الصدقة عنهما على أزواجهما ، وعلى أيتام فى حجورهما ؟ ولا تخبره من نحن • قالت : فدخل بلال على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله • فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من هما » ؟ فقال : امرأة من الأنصار وزينب • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أى الزيانب » ؟ قال : امرأة عبد الله • فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لهما أجران : أجر القرابة وأجر الصدقة »[1] •

---

(١) رواه مسلم جـ ٢ ص ١٢/٩٦٤ كتاب الزكاة (١٤) باب فضل النفقة على الأقربين ـ رقم الحديث (١٠٠٠) •

هذه تعاليم الاسلام الرائعة ، وهـذا حال نساء الصدر الأول من المسـلمين • والأمر بصـلة الرحم من أوائل ما أنزل من التشريع فى الاسـلام •

ـ عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان أبو طلحـة أكثر أنصـارى بالمدينة مالا • وكان أحب أمواله اليه بيرحى (اسم لحديقة من نخل) وكانت مستقبلة المسـجد • وكان الرسـول صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب • قال أنس : فلما نزلت هذه الآية: ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾(١) قام أبو طلحة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ان الله يقول فى كتابه : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ ، وان أحب أموالى الى بيرحى • وانها صدقة لله ، أرجو برها وذخرها عنـد الله • فضعها يا رسـول الله حيث شئت • قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : « بخ بخ ! ذلك مال رابح • ذلك مال رابح • قد سمعت ما قلت فيها • وانى أرى أن تجعلها فى الأقربين » فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه(٢) •

ـ عن أبى أيوب الأنصارى أن رجلا قال : يا رسول الله ، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنـة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « تعبـد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصل الرحم »(٣) •

وصلة الرحم مطلوبة فى الاسلام ، ولو كانت الرحم غير مسلمة ، ولكن صلتها حينئذ تكون فيما لا يتعارض مع الاسلام وأحكامه أو مع مصلحة المسـلمين :

عن أبى هريرة رضى الله عنـه قال : لمـا أنزلت هـذه الآية : ﴿ **وانذر عشيرتك الأقربين** ﴾(٤) • دعا رسـول الله صلى الله عليه وسلم قريشـا فعم وخص • فقال : « يا بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسـكم

---

(١) آل عمران : ٩٢

(٢) رواه البخارى ومسلم واللفظ لـه ، جـ ٢ ص ٦٩٣/١٢ كتاب الزكاه (٤) باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين ـ رقم الحديث (٩٩٨).

(٣) رواه البخارى جـ ٧ ص ٧٢ باب فضل صلة الرحم .

(٤) الشعراء : ٢١٤

من النار • يا بنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار • يا بنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار • يا بنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار • يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار • يا بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار • يا فاطمة أنقذى نفسك من النار فانى لا أملك لكم من الله شيئا ، غير أن لكم رحما سأبلها ببلاها »[1] .

(ببلاها : البلال مصدر بله بالماء اذا نداه به ، جمع البلل ، والعرب يطلقون النداوة على الصلة ، واليبس على القطيعة) • ومعنى الحديث : سأصلها ــ شبهت قطيعة الرحم بالحرارة ، ووصلها باطفاء الحرارة ببرودة • ومنه : بلوا أرحامكم : أى صلوها •

وصلة الرحم قد تكون مقدمة على عتق الرقاب فى بعض الأحوال :

ــ عن أم المؤمنين ميمونة ، أنها أعتقت وليدة ، ولم تستأذن النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما كان يومها الذى يدور عليها فيه ، قالت : أشعرت يا رسول الله أنى أعتقت وليدتى ؟ قال : « أو فعلت » ؟ قالت : نعم • قال : « أما أنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك »[2] •

ويظهر أن أخوالها كانوا ذوى حاجة ، أو أن صلتها لهم تؤلف قلوبهم ، وتجبر خواطرهم •

فصلة الرحم ظاهرة ترجع الى جملة من الأسس الأخلاقية ، منها الرحمة ، ومنها حب الحق وايثاره ، لأن الله تعالى قد عقد بين الرحم شبكة حقوق متبادلة ، ومنها الدافع الجماعى ، والشعور بالمحبة تجاه الآخرين •

وأبان الرسول صلى الله عليه وسلم أن صلة الأرحام من الأعمال التى يثيب الله عليها بثوابين معجلين فى الدنيا •

---

(١) رواه مسلم جـ ١ ص ١٩٢/٨٩ باب فى قوله تعالى : ﴿ **وانذر عشيرتك الأقربين** ﴾ ــ رقم الحديث (٢٠٤) .

(٢) رواه البخارى جـ ٣ ص ١٣٥ باب هبة المراة لغير زوجها وعتقها.

الأول : البسط فى الرزق والتوسعة فيه ، فالذى يصل رحمه يبسط الله له فى رزقه .

الثانى : اطالة العمر والبركة فيه .

وأبان الرسول صلى الله عليه وسلم أن المكافىء على الصلة بمثلها ليس هو الواصل ، انما الواصل هو الذى اذا قطعت رحمه وصلها . وأبان أن قطيعة الرحم من الذنوب التى يعجل الله لصاحبها العقوبة فى الدنيا ، مع ما يدخره له فى الآخرة من عقوبة .

ونفهم من حديث ميمونة مع أحاديث أخرى أن الأفضليات الواردة فى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرا ما كان يراعى الرسول فيها حال السائل وظروف الحادثة ، فلكل حادثة حكمها ، ومن العسير الحكم بالأفضلية المطلقة الا الايمان . وفيما عدا ذلك كثيرا ما تتبادل الأعمال الأفضليات بحسب المصالح التى تتحقق بها[1] .

* * *

عقوق الوالدين

عقوق الوالدين : هو اهمال حقوقهما ، والخروج عن طاعتهما ، وفعل ما لا يرضيهما ؛ وايذاؤهما ولو بكلمة مرة ، أو نظرة شزرة ...

فمن فعل شيئا من هذا استحق سخط الله تعالى ، وحرم معونته ، وارتكب اثما من أكبر الكبائر[2] .

عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل الذنوب يؤخر الله ما شاء منها الى يوم القيامة ، الا عقوق الوالدين فان الله تعالى يعجله لصاحبه فى الحياة قبل الممات »[3] .

---

(١) انظر : الأخلاق الاسلامية وأسسها ـ عبد الرحمن الميدانى جـ ٢ ص ٣٤ ـ ٤١

(٢) انظر : منهاج التربية الصالحة ـ أحمد عز الدين البيانونى ص١٤٥

(٣) رواه المستدرك على الصحيحين ـ الحاكم النيسابورى جـ ٤ ص ١٥٦ كتاب البر والصلة .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : رضا الرب فى رضا الوالد • وسخط الرب فى سخط الوالد [1] •

قضت الفطرة السليمة بأن الوالدين لهما حقوق على أولادهما لا يمكن أن يفوا بجزء منها • اذ هم مدينون لهما بتربيتهم وتنشئتهم ورعايتهم • وأن يذكروا كم بذل الأبوان فى سبيل راحتهم واسعادهم من جهد وسهر وحنان •

ثم ليذكر الولد من رعاه ، ومن أطعمه وسقاه ، ومن علمه ورباه ، ومن بذل راحته لهناه ، ليذكر الولد من احتمل العناء فى سبيله •

ولقد صدق من قال : انه لا يوجد فى الحياة من يعتبر بحق مثال التضحية الصامته الصابرة المثابرة الراضية المطمئنة كالوالدين بالنسبة لولدهما ، لذلك كان برهما مقتضى الفطرة ، لأنه شكر للنعمة واعتراف بالجميل • لقد أمر الشارع الحكيم بالاحسان الى الوالدين فى غير موضع من الكتاب الكريم وجعل تعالى طاعتهما مقرونة بطاعته ، وقضى بالبر اليهما بجانب عبادته ، وأعلن عن رضاه فى رضاهما وعن سخطه فى سخطهما • لأن الوالدين سبب وجود الانسان وهما مصدر البر والرحمة والحنان ، فالأم التى رأت أنواع المشقة والآلام فى سبيل اسعاده ، والوالد يشقى ليوفر لولده حياة الرغد والأمن والاستقامة • لذلك حرص الاسلام على رضا الوالدين ، وجعل حتى التطوع للجهاد بغير اذنهما لا يجدى نفعا •

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : أقبل رجل الى نبى الله صلى الله عليه وسلم فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد ، أبتغى الأجر من الله • قال : « فهل من والديك أحد حى » ؟ قال : نعم ،

---

(١) الأدب المفرد ـ البخارى ص ١١ باب قوله تعالى : ﴿ **ووصينا الانسان بوالديه حسنا** ﴾ •

بل كلاهما . قال : « فتبتغى الأجر من الله » ؟ قال : نعم . قال : « فارجع الى والديك فأحسن صحبتهما »[1] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « رغم أنف ، ثم رغم أنف ، ثم رغم أنف » قيل : من .. يا رسول الله ؟ قال : « من أدرك أبويه عند الكبر ، أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة »[2] .

عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : قدمت على أمى ، وهى مشركة ، فى عهد قريش اذ عاهدهم . فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، قدمت على أمى وهى راغبة . أفأصل أمى ؟ قال : « نعم . صلى أمك »[3] . فالرسول صلى الله عليه وسلم يأمر أسماء أن تصل أمها مع أنها مشركة . وقد أوصى تبارك وتعالى بهما مع عدم ايمانهما : ﴿ **وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا** ﴾[4] .

وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم البر بأصدقاء الأب من أبر البر : عن ابن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال : ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أبر البر أن يصل الرجل ود أبيه »[5] .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهدى لصديقات السيدة خديجة بعد وفاتها برا بها ووفاء لها وهى زوجته ، فكيف بالوالدين ؟

---

(١) رواه مسلم جـ ٤ ص ١٩٧٥/٤٥ كتاب البر والصلة (١) باب بر الوالدين ـ رقم الحديث (٢٥٤٩) .
(٢) رواه مسلم جـ ٤ ص ١٩٧٨/٤٥ كتاب البر والصلة (٣) باب رغم أنف من ادرك أبويه ـ رقم الحديث (٢٥٥١) .
(٣) رواه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم ، جـ ٢ ص ٦٩٦/١٢ الزكاة (١٤) باب فضل النفقة على الاقربين (٥٠) .
(٤) لقمان : ١٥
(٥) رواه مسلم جـ ٤ ص ١٩٧٩/٤٥ كتاب البر والصلة رقم (١٢) .

روى عن أبى أسيد الأنصارى قال : كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال رجل : يا رسول الله ، هل بقى من بر أبوى شىء بعد موتهما أبرهما ؟ قال : « نعم .. الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وانفاذ عهدهما ، واكرام صديقهما »[1] .

فرضاء الأبوين يعود على الابن بالخير العميم ، وهو طريق يصل به الى الجنة .

ـ عن عمرو بن مرة قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، شهدت أن لا اله الا الله وأنك رسول الله ، وصليت الخمس وأديت زكاة مالى وصمت شهر رمضان . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا ـ ونصب أصبعيه ـ ما لم يعق والديه »[2] .

فهذا الحديث يدل على أن عقوق الوالدين لا ينفع معه أى طاعة ، اذ به يستحق سخط الله وعذابه فى الحياة وبعد الممات .

ـ عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى الكبائر قال : « الشرك بالله . وعقوق الوالدين . وقتل النفس . وقول الزور »[3] .

ـ لقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عقوق الوالدين من أكبر الكبائر وأن مرتبته بعد الشرك بالله . لأن من أعق والديه فقد أساء الى من أحسن اليه ، وعامل بالقسوة أشد الناس به رحمة ، وهذا يدل على خبث فى النفس ، ودناءة فى الخلق . فعاق الوالدين لا خير فيه لأحد ، لأن الذى يضيع حق أعز الناس عليه لا يؤمن على حق أحد .

---

(١) الأدب المفرد ـ للبخارى ص ٢٠/١٩ باب بر الوالدين بعد موتهما ـ رقم الحديث (٣٥) .

(٢) رواه أحمد والطبرانى : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ـ الهيثمى جـ ٨ ص ١٤٧ باب ما جاء فى العقوق .

(٣) رواه مسلم جـ ١ ص ٣٨/٩١ باب بيان الكبائر واكبرها ـ رقم الحديث (٨٨) .

عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة لا ينظر الله اليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، ومدمن الخمر ، والمنان عطاءه . وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والديوث ، والرجلة » ، وفى رواية : « المترجلة تشبه الرجال »[1] .

وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن شابا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى « علقمة » مرض واشتد مرضه ، فقيل له : قل لا اله الا الله ، فلم ينطق لسانه ، فأخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « هل له أبوان » ؟ فقيل : مات أبوه وله أم كبيرة ، فأرسل اليها رسول الله ، فجاءت فسألها عن حال ابنها فقالت : كان كذا وكذا وكان يتصدق بجملة دراهم ما ندرى وزنها ولا عددها . فقال لها رسول الله : « فما حالك وحاله » ؟ قالت : أنا عليه ساخطة واجدة — أى غاضبة — قال لها : « ولم ذلك » ؟ قالت : كان يؤثر على امرأته ، ويطيعها فى الأشياء ، فقال رسول الله : « سخط أمه حجب لسانه عن شهادة أن لا اله الا الله ، ثم قال لبلال: «انطلق واجمع حطبا كثيرا حتى أحرقه بالنار » ، فقالت أمه : يا رسول الله ، ابنى وثمرة فؤادى تحرقه بالنار بين يدى ، وكيف يحتمل قلبى ذلك ؟ فقال لها الرسول : « أيسرك أن يغفر له ؟ فارضى عنه . فوالذى نفسى بيده ، لا ينتفع بصلاته ولا بصدقته ولا بصومه ما دمت عليه ساخطة » ، فرفعت يدها الى السماء وقالت : أشهد الله تعالى فى سمائه وأنت يا رسول الله ومن حضر أنى قد رضيت عنه . فقال رسول الله : « انطلق يا بلال فانظر هل يستطيع علقمة أن يقول لا اله الا الله ، فلعل أمه تكلمت بما ليس فى قلبها حياء من رسول الله » فانطلق بلال ، فلما انتهى الى الباب سمع علقمة يقول : لا اله الا الله ومات من يومه [2] .

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد جـ ٨ ص ١٤٨ باب ما جاء فى العقوق .

(٢) رواه الطبرانى ، واحمد ، انظر : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد — الهيثمى جـ ٨ ص ١/١٤٧ فى العقوق .

ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من الكبائر شتم الرجل والديه » قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم • يسب أبا الرجل فيسب أباه • ويسب أمه ، فيسب أمه »(١) •

لأن المشتوم يكون فى حالة تأثر وانفعال يستحيل معهما أن يقابل ما لحقه من أذى واهانة بالصمت والسكوت ، بل لا بد له من أن يثأر وينتقم ، فيرد على الشتائم بما يشفى غلته • ويطفىء غيظه فيكون البادىء ، والبادىء أظلم ، لذلك يجب الابتعاد عن كل ما يجلب لهما الأذى والاساءة ولو بطريق التسبب •

ثم ان الذى يسىء الى والديه لا يرجى منه الاحسان الى أى انسان ، وكيف يرجى منه الاحسان للغير ولم يحسن الى من ربياه صغيرا ، ونسى عطفهما وعنايتهما ورعايتهما مما يدل على دناءة نفسه وخسة طبعه •

لقد جمع القرآن الكريم بين عبادة الله والأمر بالاحسان الى الأبوين والصبر على خدمتهما ، والتفانى فى رضائهما ، وخفض الصوت أمامهما ، ولكن يوجد أبناء لا يقدرون شرف الأبوة • ولم يؤثر فيهم معروف الأمومة فتنكروا لآبائهم ، وعقوا أمهاتهم ، وطردوهم من بيوتهم ارضاء لزوجاتهم • وترى المحاكم الشرعية مشغولة بفرض النفقات على الأولاد العاقين لآبائهم العاجزين •

وقد ذكر الفقهاء بأن النفقة لا تجب الا على ذا يسار بحيث يفضل من حاجاته الأصلية الا الأبوين فانه لا يشترط أن يكون الولد بالنسبة لأبويه موسرا مادام قادرا على العمل لكى يعينهما فى شيخوختهما • وان لم يكن فى كسبه ما يفضل لهما ضمهما اليه وأكل معهما مما يكسب قليلا كان أو كثيرا • وذلك لأن القرآن الكريم نهى الولد أن يتأفف

---

(١) رواه مسلم جـ ١ ص ٣٨/٩٢ باب بيان الكبائر واكبرها ـ رقم الحديث (٩٠) •

من أبويه اذا بلغا عنده الكبر ، واذا كان لا يسوغ له أن يتأفف منهما ، فأولى ألا يتركهما جائعين .

وحقوق الأبوين على أولادهم لا يحدها حد ، ولا يفيها عطف أو عطاء ، لأنهما بذلا شبابهما وراحتهما وعافيتهما فى سبيل اسعاد أولادهم والسهر على راحتهم ، ومهما عمل الأولاد فهو جزء ضئيل من حقوقهما .

ولنختم هذه الكلمة بشكاة الشاعر الجاهلى دريد بن الصمة من ولده الذى بنى آماله كلها على رعايته وسد حاجاته عند شيخوخته ، ولكنه كان على النقيض من ذلك . فقال معاتبا على ذلك الولد العاق الناكر للجميل :

غذوتك مولودا وعلتك يافعا ... تعل بما أدنى اليك وتنهل
اذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت ... لشكواك الا ساهرا أتململ
كأننى أنا المطروق دونك بالأذى ... طرقت به دونى فعينى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك وانها ... لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى ... اليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى منك جبها وغلظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك اذ لم ترع حق أبوتى ... فعلت كما الجار المجاور يفعل[1]

* * *

٢ ــ عدم نهرهما والتضجر منهما ، لقوله تعالى :

﴿ وقضى ربك الا تعبدو الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾(٢) .

(١) انظر : من هدى النبوة ــ كمال الدين الطائى ص ٣٧٦
(٢) الاسراء : ٢٣ ، ٢٤

وقد تضمنت هاتان الآيتان :

١ ــ الأمر بالاحسان الى الوالدين مقابل احسانهما الى الولد ، وجزاء فضلهما عليه واقتران ذلك بالأمر بالعبادة .

٢ ــ النهى عن قهرهما بغلظة ، وزجرهما بخشونة ، وعن كل ما يتضجر منه وان كان بكلمة « أف » الدالة على الضجر والتبرم . واذا كانت كلمة « أف » منهيا عنها فما بالنا بغيرها !! وهذا النهى ليس خاصا بحالة الكبر وانما هو نهى عام فى جميع الأحوال .

٣ ــ وعلى الأولاد أن يتخيروا فى مخاطبة آبائهم أجمل الكلمات وألطف العبارات وأن يكون قولهم كريما لا يصحبه شىء من العنف .

٤ ــ وعليهم أن يتذللوا لآبائهم ويخفضوا جناح الذل لهم رحمة بهم وعطفا عليهم .

٥ ــ من حق الآباء كذلك أن يدعو لهم الأبناء الله بأن يظلهم برحمته التى وسعت كل شىء وأن يقول الولد فى دعائه لوالديه : ﴿ **رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا** ﴾ . وقوله : ﴿ **كما ربيانى** ﴾ خص التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما فى التربية فيزيده ذلك اشفاقا وحنانا عليهما .

قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من أمسى مرضيا لوالديه وأصبح ، أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة ، وان واحدا فواحد . ومن أمسى وأصبح مسخطا لوالديه ، أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان الى النار وان واحدا فواحد » . فقال رجل : يا رسول الله ، وان ظلماه ؟ قال : « وإن ظلماه ، وان ظلماه . وان ظلماه »[1] .

٣ ــ الاحسان اليهما بالقول الكريم والدعاء بالرحمة والاستغفار ،

---

(١) انظر : الأدب المفرد ــ للبخارى ص ٤/١٢ باب بر الوالدين وان ظلما رقم (٧) .

وبالبذل والعطاء • قال تعالى : ﴿ **ووصينا الانسان بوالديه حسنا** ﴾(١)

ينبغى للمسلم أن يحسن الى والديه ويبرهما جزاء ما قدموا له فى الصغر ويبذل كل جهده فى ارضائهما ، وبر الوالدين ليس مقصورا على حياتهما ، وانما هو ممتد الى ما بعد الوفاة كما بين الله سبحانه وتعالى على لسان نوح : ﴿ **رب اغفر لى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾(٢) •

وقال سبحانه على لسان ابراهيم : ﴿ **ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾(٣) •

فرابطة المودة باقية فى الحياة وبعد الممات بالدعاء والاستغفار : فقد جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله ، هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد وفاتهما ؟ قال : « نعم : الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وانفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل الا بهما ، واكرام صديقهما »(٤) •

٤ ــ أن يأخذ الوضع اللائق أمامهما بتعديل جلسته والبعد عن أوضاع اللامبالاة أمامهما كمد ارجل أو رفعها فى مواجهتهما أو القهقهة أو الاضطجاع أو الغناء أو التعرى وغيرها •

٥ ــ مساعدتهما فى أعمالهما : فليس من اللائق أن تسير الى جانب والدك وهو يحمل فى يده شيئا وأنت لا تحمل شيئا ، بل الأدب أن تحمله عنه وأن تساعده فى عمله ، وأن تعاون البنت أمها فى تدبير المنزل ، ومن مساعدتهما الحفاظ على نظافة البيت والأثاث والملابس • ومن مساعدة الوالد : الدراسة بجد حتى تحقق النجاح وتوفر عليه

---

(١) العنكبوت : ٨ (٢) نوح : ٢٨
(٣) ابراهيم : ٤١
(٤) رواه الترمذى جـ ٥ ص ١٢٩/٣٥٢ باب بر الوالدين رقم الحديث (٥١٤٢) .

مصروف السنة التى تخفق فيها ، ومن مساعدتهما اهتمام الأخوة الكبار بالصغار ، سواء فى التوجيه أو بالاعتناء بهم أو بتعليمهم .

٦ ـ الحفاظ على سمعة والديك وكرامتهم ، وذلك بعدم الاساءة الى الناس كى لا يتعرضوا بالاساءة الى والديك بالشتم والتجريح .

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من الكبائر أن يشتم الرجل والديه » فقالوا : كيف يشتم ؟ قال : « يشتم الرجل ، فيشتم أباه وأمه »[1] .

ان حق الوالدين على الولد من أجل الحقوق وأعظمها بعد حق الله سبحانه وتعالى لأن الله اذا كان هو الخالق الحقيقى للولد فانه سبحانه يجعل لكل شىء سببا ، وقد جعل الوالدين هما مصدر هذا الخلق وسببه المباشر ، ولأنهما يبذلان من التضحيات والجهود من أجل تربية الأولاد واعدادهم للحياة ما يستحقان المكافأة عليه[2] .

* * *

الأدب مع الوالدين

لا يخفى على المرء ما يتحمله الوالدان من مشقة وعناء فى سبيل سعادة أولادهم والسهر على مصالحهم وما يكنان لهم من حب وعطف . ومن الوفاء مقابلة الاحسان بالاحسان ، ومهما قدم المرء لوالديه من ضروب البر والاحسان يبقى عاجزا عن أن يفيهما حقهما أو أن يرد اليهما جميلهما : ﴿ **وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا** ﴾[3] ، ومن الاحسان اليهما التزام الأدب معهما . واليك بعض هذه الآداب :

---

(١) الأدب المفرد ـ للبخارى ص ١٨ / ١٤ باب لا يسب والديه رقم (٢٧) .

(٢) انظر : علاقة الآباء بالأبناء فى الشريعة الاسلامية ـ سعاد ابراهيم صالح ص ٢٧

(٣) الاسراء : ٢٣

١ ــ طاعتهما : والطاعة دليل المحبة ؛ وطاعة الوالدين واجبة فى المعروف لا فى معصية الله • فانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق • لقوله تعالى :

« وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب الى ، ثم الى مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون »(١) •

قال القرطبى : « ان طاعة الأبوين لا تراعى فى ارتكاب كبيرة • ولا فى ترك فريضة ، وتلزم طاعتهما فى المباحات » • ونقل عن الحسن أنه قال : « إن منعته أمه من شهود صلاة العشاء شفقة فلا يطعها » • وقد ذهب بعض الناس الى أن أمرهما بالمباح يصيره فى حق الولد مندوبا اليه • وأمرهما بالمندوب يزيده تأكيدا فى ندبيته • والأساس فى هذا قوله تعالى : « **وان جاهداك على ان تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما** » فكما تحرم طاعة الوالدين فى الشرك تحرم فى كل معصية • لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق »(٢) •

ولكن •• هناك بعض الآباء يتعذر ارضاؤهم بما يستطيعه أولادهم من الاحسان ؛ بل يكلفون الأولاد ما لا طاقة لهم به • فقد تظلم الأم ولدها قليلا مغلوبة لبادرة الغضب ، أو طاعة لما يعرض من أسباب الهوى ، كأن تتزوج رجلا تحبه وهو يكره ولدها من غيره ، وكأن يقع التغاير بينها وبين امرأة ولدها وتطلب منه أن يطلق زوجته وان لم يقصر فيما يجب لها من البر والاحسان ، وقد يتحكم الآباء فى مستقبل أبنائهم انطلاقا من الحرص على تحقيق المصلحة لهم ، وقد يتحكمون فى تزويج أولادهم بمن يكرهون أو اكراههم على تطليق من يحبون ، فهل تجب طاعة الوالدين فى مثل هذه الأمور ؟

---

(١) لقمان : ١٥

(٢) أحكام القرطبى ــ مجلد (٥) ، ص ٣٨٥٣ ــ ٣٨٥٥

يقول صاحب المنـــار فى تفســيره لقوله تعـــالى : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا** ﴾(١) : « يجب أن نفهـــم أن الاحســـان للوالدين الذى أمرنا به فى دين الفطرة هو أن نكون فى غاية الأدب مع الوالدين فى القـــول والعمل بحسب العرف حتى يكونا مغبوطين بنا ، وأن تكفيهما أمر ما يحتاجان اليـــه من الأمور المشروعة المعروفة بحسب استطاعتنا . فاذا أراد أحدهما أو كلاهما الاستبداد فى تصرفنا فليس من البر ولا من الاحســـان شرعا أن نترك ما نرى فيـــه الخير العام أو الخاص ونعمل ما نرى فيه الضر العام أو الخاص عمـــلا برأيهما واتباعا لهواهما » .

ويعلل رأيه بما جاء فى الهـــدى النبـــوى الشريف أن الثيب من النســـاء أحق بنفســـها ، فليس لأبيها ولا لغيره من أوليائها أن يعقدوا لها الا على من تختـــاره وترضـــاه لنفسها لأنها لممارســـتها الرجـــال تعرف مصلحتها . وأن البكر على حيائها وغرارتها وعدم اختيارها وعلم ما يعلم الأب الرحيم من مصلحتها يجب أن تســـتأذن فى العقـــد عليها ويكتفى من اذنها بصمتها . وظاهره أنها اذا لم تظهر الرضـــا بل صرحت بعدمه لا يجـــوز العقد عليها . وأما الولد فهو أحـــق من أبيه بتزويج نفســـه اجماعا ، وليس لأبيه ولاية عليه فى ذلك ، فكيف يتحكم الوالد فى ولده بما لا يحكم به الشرع ولا ترضى به الفطرة(٢) .

ويقصد بذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « الثيب أحق بنفســـها من وليها ، والبكر تستأمر واذنها سكوتها »(٣) .

أما ما ورد فى السنن عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : « كانت تحتى امرأة أحبها وكان أبى يكرهها فأمرنى أن أطلقها ، فأتيت النبى صلى الله عليـــه وسلم فذكرت له فقـــال : « يا عبـــد الله ، طلق

---

(١) النســـاء : ٣٦
(٢) انظر : تفسير المنار ـ محمد رشيد رضا جـ ٥ ص ٨٣ ـ ٨٨
(٣) سنن الدارقطنى جـ ٣ ص ٢٣٩

امرأتك »[1] فانه خاص بعمر لأنه محق فى كراهتها لشى يراه . وعمر مشهور بورعه وتقواه ، ولا يطلب شيئا يخالف أحكام الشرع ، وانما ينظر الى المصلحة فى جل اجتهاداته . والا فالطلاق لا ينبغى الا لسبب شرعى وليس منه مجرد طلب الوالدين . فانهما غالبا يكرهان الزوجة من غير شىء . والطلاق مما يهتز منه العرش .

* * *

حسن تربية الولد

الأب والأم هما المثل الأعلى للأطفال ، والطفل بطبيعته يحب التقليد ، لذا كثيرا ما ترى طفلة تقلد أمها فى لباسها أو طفلا يقلد أباه فى جلسته ، وكثيرا ما تنشأ البنت صورة عن أمها والابن صورة عن أبيه ، وقديما قيل : « من شابه أباه فما ظلم » . وكما أن للأولاد أدبا مع والديهم كذلك للآباء آداب أمام أولادهم نوجز بعضها :

١ ــ أن يكون الأبوان قدوة حسنة لأبنائهم فى الاستقامة والصدق والأمانة والصفات الحسنة كلها . فهما أقرب نموذج مثالى لتعليمهم الأدب والتطبع على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات ولا يستطيع أحد أن ينكر أثر البيئة على الطفل ، وأفضل وسائل التعليم هى القدوة الحسنة . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه أو يمجسانه »[2] .

٢ ــ أن لا يظهر أحدهما بمظهر متناقض أمام أولاده كأن يأمرهم بالصدق وهو كذوب ، أو بالامتناع عن شرب الدخان وهو يشربه ، أو بالتعاون والتعاطف بين الأخوة وهو قاطع لرحمه . قال تعالى :

---

(١) رواه الترمذى وابو داود ، انظر : التاج لجامع الأصول فى احاديث الرسول جـ ٢ ص ٣٤٢

(٢) رواه أبو داود جـ ٥ ص ١٨/٨٦ باب فى ذرارى المشركين ــ رقم الحديث (٤٧١٤) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون ﴾(١) . فإن التناقض يفقد النصائح أثرها .

٣ ــ أن يبتعد الوالدان عن التلفظ بالألفاظ الفاحشة والنابية أمام أولادهم ، كالتلفظ بالكفر والكلام الفاحش والبذىء والحلف بالطلاق وما شاكل ذلك ، فالطفل كالمسجل يلتقط الكلمة عن والديه ، فما يلبث أن يعيدها ، كما ليس من الأدب أن يداعب أمهم فى حضرتهم ، أو أن يطردهم من البيت لأتفه الأسباب مما يساعد على افسادهم .

٤ ــ أن لا يتضايق من البنات أو من كثرتهن ، وأن يسوى فى المعاملة بين الذكور والاناث ، عن شرحبيل رضى الله عنه قال : سمعت ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مسلم تدركه ابنتان ، فيحسن صحبتهما ، الا أدخلتاه الجنة »(٢) .

٥ ــ أن لا يخص ولدا بعطاء دون آخر ، أو يمنع أحدا من عطاء منحة اخوانه ، فإن ذلك يولد الحقد عليه وعليهم لما فى ذلك من ظلم ، ففى الحديث :

عن النعمان بن بشير . قال : تصدق على أبى ببعض ماله . فقالت أمى عمرة بنت رواحه : لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق أبى الى النبى صلى الله عليه وسلم ليشهده على صدقتى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفعلت هذا بولدك كلهم » ؟ قال : لا . قال : « اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم » فرجع أبى . فرد تلك الصدقة(٣) .

٦ ــ أن يحسن تربيتهم ويعلمهم علوم الدنيا ويكفلهم حتى يقدروا على العمل ، فان الولد السىء يدفع الناس الى ذم أبيه وشتمه ، وأن لا يبخل

---

(١) الصف : ٢ ، ٣

(٢) انظر : الأدب المفرد ــ للبخارى ص ٣٠/٤١ باب من عال جاريتين او واحدة رقم (٧٧) .

(٣) رواه مسلم جـ ٣ ص ١٢٤١ باب كراهة تفضيل بعض الأولاد فى الهبة رقم (١٣) .

عليهم بما يحتاجون من ضرورات الحياة من الطعام واللباس ولوازم العمل والدراسة ، فإن الله ضامن رزقهم قال تعالى : ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾(١) .

ومن المؤسف أن لا يهتم الآباء بدين أبنائهم . فعندما تسوء صحة الولد يسارعون لعلاجه عند الطبيب ، وعندما تسوء أخلاقه فانهم يهملونه . يقصر فى بعض المواد الدراسية فيحضرون له المدرس المختص ، ويجهل الدين ويقصر بواجباته الدينية فلا يهمهم ذلك مع علمهم أن جزاء المقصرين النار . عجبا . كيف يشاهدون أبناءهم يقبلون على النار ولا يسارعون لانقاذهم منها والله تعالى يقول :

﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾(٢) .

قال الله تعالى : **﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾(٣) .**

عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين ، وفرقوا بينهم فى المضاجع »(٤) .

وقد نبه بعض العلماء الى أن الضرب ينبغى أن يكون غير مبرح (يعنى لا يترك أثرا) ، فان لم يستجب الا بالضرب المبرح تركه ولم يضربه خيفة أن يؤدى الضرب المبرح الى الهروب والكذب وكره الصلاة .

٧ ــ من أدب الاسلام أن يعامل الوالدان أولادهما بالعطف والرحمة لينشأ الأولاد على حبهما فيستجيبوا لتوجيهاتهما . يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حق الولد على والده أن يحسن أدبه

---

(١) الاسراء : ٣١ (٢) التحريم : ٦

(٣) طه : ١٣٢

(٤) رواه احمد وابو داود والترمذى واللفظ لأبى داود جـ ١ ص ٣٣٢/٤٩٥

ويحسن تربيته ، ويقول صلى الله عليه وسلم : « رحم الله والدا أعان ولده على بره »[1] . وذلك بحسن معاملته وتربيته ، وبأن لا يطلب منه الا ما يطيق .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن الأقرع بن حابس أبصر النبى صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن . فقال : ان لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انه من لا يرحم لا يرحم »[2] .

* * *

العدل بين الأولاد

لا يفرق الاسلام بين الذكور والاناث فى التربية . فلكل من الجنسين الحق فى أن يربى تربية حسنة ، وفى أن يتعلم العلم النافع ، ويدرس المعارف الصحيحة ، ويأخذ بأسباب التأديب ووسائل التهذيب لتكمل انسانيته ، ويستطيع النهوض بالأعباء الملقاة على عاتقه .

والدليل على ذلك . ما رواه ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ، ولم يؤثر ولده (يعنى الذكور) عليها أدخله الله الجنة »[3] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من كان له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن وضرائهن وسرائهن أدخله الله الجنة برحمته اياهن » فقال رجل : واثنتان يا رسول الله ؟

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ـ الهيثمى جـ ٨ ص ١٤٦ باب اعانة الولد على البر .

(٢) رواه مسلم جـ ٤ ص ٤٣/١٨٠٨ كتاب الفضائل (١٥) باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال رقم (٢٣١٨) .

(٣) رواه أبو داود جـ ٥ ص ١٣٠/٣٥٤ باب فى فضل من عال يتيما رقم الحديث (٥١٤٦) .

قال : « واثنتان » . قال رجل : يا رسول الله ، وواحدة ؟ قال : « وواحدة »[1] .

ولكى يكون زينة الحياة الدنيا ، وعملا صالحا فى الأخرى ، أوجب الاسلام على الآباء رعاية أبنائهم ، وتربيتهم تربية أساسها الدين والخلق القويم لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين ، وفرقوا بينهم فى المضاجع »[2] .

كل ذلك ليتعودوا على الطاعة والانقياد ، وأن يكون التأديب بالرفق واللين . لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الرفق لا يكون فى شىء الا زانه ولا ينزع من شىء الا شانه »[3] .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أكرموا أولادكم ، وأحسنوا أدبهم »[4] .

روى أبو حفص عمر بن أبى سلمة قال : كنت فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت يدى تطيش فى الصحفة ـ أى تدور فى نواحى طبق الطعام ـ فقال لى : « يا غلام ، سم الله وكل بيمنك ، وكل مما يليك »[5] .

ولكى يكون الولد ثمرة طيبة ، وذكرا حسنا ، وذخيرة عند الله تعالى ، يجب تنشئته على الآداب والفضائل ، لأن من شب على شىء شاب عليه . وقديما قال الامام الغزالى : كما أن البذن فى

---

(١) رواه الحاكم وقال : صحيح الاسناد ، الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ١٣٧

(٢) رواه أبو داود جـ ١ ص ٣٢ رقم الحديث (٤٩٥) .

(٣) رواه مسلم جـ ٤ ص ٢٠٠٤/٤٥ كتاب البر والصلة والآداب (٢٣) باب فضل الرفق رقم (٧٨) .

(٤) رواه ابن ماجه جـ ٢ ص ١٢١١/٣٣ كتاب الأدب رقم الحديث (٣٦٧١) .

(٥) رواه مسلم جـ ٣ ص ١٥٩٩/٣٦ كتاب الأشربة (١٣) باب آداب الطعام والشراب (١٠٨) .

الابتداء لا يخلق كاملا ، وانما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية والغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ، وانما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم ، والصبى اذا أهمل فى ابتداء نشوئه ، خرج فى الأغلب ردىء الأخلاق كذابا حسودا سروقا نماما لحوحا ذا فضول وكياد ، وانما يحفظ من جميع ذلك بحسن التأدب الذى يجعله متعة الحياة ، وعونا على شئونها ، وذخرا بعد الممات ، لأن الولد الصالح كله خير لأبويه فى حياتهم وبعد مماتهم[1] .

وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ **يا ايها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم نارا وقودها الناس والحجارة** ﴾[2] :

اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصى الله ، ومروا أولادكم بامتثال الأوامر واجتناب النواهى ، فذلك وقاية لكم من النار .

وفى الحديث الشريف : « ان الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع ، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته » .

ثم لا فرق فى الحب بين الذكور والاناث ، وكذا فى العطية حتى يكونوا فى البر سواء .

وفى الأثر : « ان الله يحب أن تعدلوا بين أولادكم حتى فى القبل » .

ومثله : « ساووا بين أولادكم فى العطية » . وذلك خشية التنافس والتحاسد بين الأولاد . ويحرم على الأب أن يؤثر أحد أولاده بمنحة أو عطية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اعدلوا بين أبنائكم . اعدلوا بين أبنائكم . اعدلوا بين أبنائكم » قال ذلك عندما طلبت عمرة بنت رواحة امرأة بشير بن سعد الأنصارى من زوجها

---

(١) احياء علوم الدين ـ الغزالى جـ ٣ باب واجب الآباء والمربين فى توجيه ابنائهم ص ٧٠ وما بعدها .
(٢) التحريم : ٦

أن يخص ولدها النعمان بن بشير بمنحة فيهب له غلاما كان يملكه دون أخوته . وطلبت منه أن يشهد عليه رسول الله فذهب بشير الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله ، إن ابنة فلان ـ يعني زوجته ـ سألتني أن أنحل ابنها غلامي ، فقال صلى الله عليه وسلم : « له أخوة » ؟ قال : نعم . قال : « فكلهم أعطيت مثل ما أعطيته » ؟ قال : لا ، قال الرسول : « فليس يصلح هذا وانني لا أشهد الا على حق ، لا تشهدني على جور ، ان لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم ، كما لك عليهم من الحق أن يعدلوا لك في البر ، اتقوا الله واعدلوا في أولادكم ، أيسرك أن يكونوا في البر سواء » ؟ قال : نعم ، قال الرسول : « فلا آذن » ، وأمره برد العطية . فرجع بشير في عطيته »[1] .

ان تفضيل أحد الأولاد على أخوته بشيء من المال قد منعه الشارع الحكيم ، لما يترتب عليه من مفاسد اجتماعية ، اذ يوغر ذلك صدر الأخ على أخيه . وصدر الأخت على أختها وصدريهما على أبيهما ، فتتفرق بذلك الأسر . وتشتعل نار العداوة والبغضاء بين الأهل والأقارب . وقد ورد في الأثر : « رحم الله والدا أعان ولده على بره »[2] .

وهذا كله اذا لم يكن سبب للتفضيل بين الأولاد . فقد ذهب بعض العلماء ومنهم الحنابلة الى جواز تخصيص بعض الأولاد دون اخوانهم اذا كانوا بحاجة اليه . كالزمانة والعمى . أو كثرة العائلة أو الاشتغال بالعلم ، كما أجازوا منع عطية الولد عن بعض ولده لفسقه أو بدعته .

ولقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبنات خيرا ، عن

---

(١) رواه مسلم جـ ٣ ص ٣/١٢٤٢ باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة (١٢) .

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ـ جـ ٨ ص ١٤٦ ، باب اعانة الولد على البر .

ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مسلم تدركه ابنتان ، فيحسن صحبتهما ، الا أدخلتاه الجنة »[1] .

وفى هذا ردع لأولئك الذين تكفهر وجوههم ، وتنتفخ أوداجهم اذا بشروا بالأنثى ، ويهجر البعض منهم نساءهم . كأنهن اللاتى خلقنهن :

قال تعالى : ﴿ **واذا بشر احدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون ام يدسه فى التراب ، الا ساء ما يحكمون** ﴾[2] .

لقد حرم الاسلام على الوالد أن ينكر ولدا ولدته زوجته فى فراشه لأن انكاره هذا يلحق أكبر الضرر وأقبح العار بالزوجة والولد ، فلا يباح له الاقدام على ذلك لشك عارض ، أو وهم طارىء ، أو اشاعة خبيثة .

أما اذا جزم على خيانة امرأته للأدلة والقرائن ، فقد جعلت الشريعة له مخرجا من ذلك . فأباحت له « اللعان » وقد فصل ذلك القرآن الكريم فى سورة النور :

قال تعالى : ﴿ **والذين يرمون ازواجهم ولم يكن لهم شهداء الا انفسهم فشهادة احدهم اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين . والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين . ويدرؤا عنها العذاب ان تشهد اربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين . والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين** ﴾[3] .

وبعد ذلك يفرق بينهما ويلحق الولد بأمه .

---

(١) الأدب المفرد ـ للبخارى ، ص ٣٠ / ٤٠ باب من عال جاريتين رقم الحديث (٧٧) .

(٢) النحل : ٥٨ ، ٥٩ (٣) النور : ٦ ـ ٩

وكمـا حرم على الوالد أن يـكر نسب ولده ، حرم على الولد أن ينتسب لغير نسـبه ويدعى الى غير أبيه . ولقد قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : « من ادعى الى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليـه حرام »[1] ، [2] .

* * *

الأسرة والحقوق الاجتماعية

١ ـ الأسرة والوالدين :

فى طليعة الحقـوق التى يجب أن تحرص عليها الأسرة ورجـال التربية توجيه الناشـئة الى حقوق الوالدين برا بهما ، واحسانا اليهما ، وطاعة لأوامرهما ووفاء بحقهما ولا سـيما فى حـال الشـيخوخة ، قال سبحانه :

﴿ وقضى ربك الا تعبـدوا الا اياه وبالوالدين احسـانا ، اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهمـا قولا كريمـا ﴾[3] .

(أ) وقد أعطى الاسلام للأم حق الرعاية قبل الأب ، جاء رجـل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، من أحق بحسن صحابتى ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « أمـك » ، قال : ثم من ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « أبوك »[4] .

والاسـلام لم يجعـل الرعـاية للأم قبـل الأب اعتبـاطا ، ولكن لأسـباب عاطفيـة نبيـلة وأصـول نفسـية ، وقواعـد تربوية تتصـل بطبيعـة العـلاقة بـين الولـد والأم ، فالأم تعـانى من حمل الولد ، وتعانى من ولادته ، وتعانى من ارضـاعه ، وتعانى من القيـام على أمره وحضانته ، وهو بعد فى مرحلة الطفولة أكثر مما يعانى

---

(١) رواه مسلم : جـ ١ ص ٨٠ ـ كتاب الايمـان (٢٧) باب حـال ايمان من رغب عن أبيه ـ رقم الحديث (١١٥) .
(٢) انظر من هدى النبوة : كمال الدين الطائى ، ص ٣٨٨ وما بعدها.
(٣) الاسراء : ٢٣
(٤) رواه البخارى ، وابو داود ، والترمذى .

الأب ، وصـدق الله حيث قال : ﴿ **ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن وفصاله فى عامين** ﴾(١) .

(ب) حق البر : وأكرم خصال بر الوالدين : امتثال أمرهما ، واحترام رأيهما ، والأخذ بنصيحتهما ، قالت عائشة أم المؤمنين : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل معه شيخ فانى ، فقال له : « يا هذا ، من هذا الذى معك » ؟ قال : أبى ، قال : « فلا تمش أمامه ، ولا تجلس قبله ، ولا تدعه باسمه ، ولا تستسب له »(٢) .

ومن أعظم ألوان البر الدعاء لهما بعد مماتهما ، قال سبحانه : ﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا** ﴾(٣) .

وروى مالك بن ربيعة قال : بينما نحن عند رسول الله ، اذ جاءه رجل من بنى سلمة ، فقال : يا رسول الله ، هل بقى على من بر أبوى شىء أبرهما به بعد وفاتهما ؟ قال : « نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وانفاذ عهدهما ، واكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لا توصل الا بهما »(٤) .

(جـ) وقد قدم الاسلام حقوق الوالدين على الجهاد فى سبيل الله ، واعتبر ذلك أولى بالجهاد ، وأحق بالكفاح ، وأجدر بالثواب ، فقد أقبل رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغى بهما الأجر من الله » ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « هل من والديك أحد حى » ؟ قال : بل كلاهما . قال : « فتبتغى الأجر من الله »؟ قال : نعم ، قال : « فارجع الى والديك فأحسن صحبتهما »(٥) .

---

(١) لقمان : ١٤
(٢) مجمع الزوائد : جـ ٨ ص ٢٥
(٣) الاسراء : ٢٤
(٤) رواه أبو داود رقم (٥١٤٢) ، وابن ماجه فى الأدب والصلة (٣٦٦٤)
(٥) رواه مسلم فى البر والصلة (٤٥٤٩) .

وهذا معاوية بن جاهمة يقول : إن أباه قد أتى النبى فقال : يا رسول الله ، أردت الغزو ، وجئت أستشيرك ، فقال : « هل لك من أم » ؟ قال : نعم ، قال : « الزمها فإن الجنة تحت أقدامها »[1] .

(د) وقد حذر الاسلام من عقوق الوالدين ، وعصيانهما ، والخروج على أوامرهما ، والصراخ فى وجههما ، فمن أكبر العقوق التنكر لحقهما ، والخجل من الانتساب لهما ، وعدم الانفاق عليهما ، والتضجر من مطالبهما ، فان عاقبة ذلك وخيمة فى الدنيا والآخرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » ؟ (ثلاثا) قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : « الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ــ وكان متكئا فجلس ــ فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور » ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت[2] .

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من الكبائر شتم الرجل والديه » ، قال رجل : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم ، يسب الرجل أبا الرجل ، فيسب الآخر أباه ، ويسب أمه »[3] .

وقال معاذ بن جبل : أوصانى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشر كلمات ، قال : « لا تشرك بالله شيئا ، وان قتلت وحرقت ، ولا تعقن والديك ، وان أمراك أن تخرج من أهلك ومالك ... »[4] .

٢ ــ الأسرة وصلة الرحم :

تعتبر صلة الرحم مظهرا من مظاهر وظائف الأسرة ، ووشيجة من وشائج التراحم والترابط ، وقد عنيت الشريعة الاسلامية بتوثيق عرى روابط القرابة العائلية ، كى يصبح هذا المظهر الكريم ركيزة فى احساس المؤمنين ووجدانهم النابض بالخير .. قال سبحانه :

---

(١) رواه أحمد جـ ٣ ص ٤٢٩
(٢) رواه البخارى والترمذى جـ ٦ ص ١٦٠ برقم (١٠٩٢) .
(٣) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى برقم (١٩٠٣) .
(٤) رواه أحمد جـ ٥ ص ٢٣٨

﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾(١) . فقد قرن سبحانه بين طلب التقوى وبين صلة الأرحام ، وتغنى فى كتابه الكريم بهذا الشعور الحى ، وهذه العاطفة النبيلة .

فقال تعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾(٢) .

وما أكثر الأحاديث النبوية التى نثرها الرسول صلى الله عليه وسلم على طريق صلة الرحم ، ليعلم كل عضو فى المجتمع الاسلامى قدرها ، ويحذر من عاقبة قطعها ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ان الله سبحانه خلق الخلق ، حتى اذا فرغ منها قامت الرحم ، فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ فقالت : بلى ، قال : فذلك لك » ثم عقب رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : « واقرأوا اذا شئتم : ﴿ فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فاصمهم واعمى ابصارهم ﴾(٣) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما يرويه عن ربه : « أنا الله ، وأنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها اسما من اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته »(٤) .

وقال سبحانه : ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾(٥) .

ومن ثم كانت المهمة الأولى للأبوين باعتبارهما رئيسى الأسرة أن يوجها أبناءهما نحو دوافع صلة الرحم ، لتنمو فيهم خلة الوفاء ، وعاطفة المحبة ، ومد يد العون الى محتاجهم ، ومواساة فقيرهم .

---

(١) النساء : ١ (٢) الأنفال : ٧٥
(٣) محمد : ٢٢ ، ٢٣
(٤) رواه ابو داود فى الزكاة ـ باب صلة الرحم (١٦٩٤) .
(٥) الرعد : ٢٥

وثمرات صلة الرحم أكثر من أن تحصى ، ولكننا نجتزىء منها هذه الجوانب رجاء أن تقوم الأسرة بتبصير الأبناء اياها ، وتقينهم مبادئها ، ليشبوا وهم مؤمنون بها ، فصلة الرحم تزيد فى العمر ، وتوسع فى الرزق .. قال صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن يبسط له فى رزقه ، وينسأ له فى أجله فليصل رحمه »[1] .

وقال : « الرحم متعلقة بعرش الرحمن ، تقول : من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله »[2] .

وصلة الرحم تدفع المكروه عن الواصل ، وتحجب ميتة السوء ، قال صلى الله عليه وسلم : « ان الصدقة ، وصلة الرحم ، يزيد الله بهما فى العمر ، ويدفع بهما ميتة السوء ، ويصد بهما المكروه المحذور »[3] .

وصلة الرحم تملأ الديار بالخير وتنمى الثروات .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليعمر بالقوم الديار ، ويثمر لهم الأموال ، وما نظر اليهم منذ خلقهم بغضا لهم » ، قيل : وكيف ذاك يا رسول الله ؟ قال : « بصلتهم الرحم »[4] .

وأخرج مسلم عن أبى هريرة أن رجلا قال : يا رسول الله ، ان لى قرابة أصلهم ويقطعونى ، وأحسن اليهم ويسيئون الى ، وأحلم عنهم ويجهلون على ، فقال : « لئن كنت كما قلت ، فكأنما تسفهم المل ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك »[5] .

والمعنى : انك بصبرك على أذاهم ، وردهم بالتى هى أحسن ، فكأنك تطعمهم الرماد الحار ، وهذا كناية عن أنهم يصابون بغصة فى حلوقهم ، ويشعرون بمدى تقصيرهم وولوغهم .

---

(١) رواه البخارى ومسلم فى البر (٢٥٥٧) .
(٢) انظر : تيسير الوصول جـ ٣ ص ٩
(٣) رواه أبو يعلى .
(٤) رواه الطبرانى والحاكم .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٣٢١

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ليس الواصل بالمكافىء (أى الذى يثيب على الصلة بمثلها) ولكن الواصل الذى اذا قطعت رحمه وصلها » .

ويقول : « أفضل الصدقة : الصدقة على ذى الرحم الكاشح » ـ أى العدو .

وكانت الصدقة أفضل لأن فى ذلك مجاهدة للنفس وحملها على الصبر ، والاعتصام بالهدوء ، وضبط البشرية ، ومن ثم اذا حدثت هذه المجاهدة ، وتجاوزت ظلمة البشر ، وقصد بها الانسان وجه الله تعالى ، فانه يضاعف له الأجر ، وصدق الله حيث يقول : **﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ﴾**(1) .

وممن عنى بقيمة صلة الرحم ، وتبيان ثوابها ، وأثرها النفسى والمادى القاضى عياض ، ومن كلامه : « الرحم التى عناها الله ورسوله ، هى الرحم التى توصل وتقطع وتبر ، انما هى معنى من المعانى ، ليست بجسم ، وانما هى قرابة ونسب ، تجمعه رحم والدة ، ويتصل بعضه ببعض فسمى ذلك الاتصال رحما ، والمعنى لا يتأتى منه القيام ولا الكلام ، فيكون ذكر قيامها هنا وتعلقها مجرد ضرب مثل ، وحسن استعارة على عادة العرب فى استعمال ذلك ، والمراد تعظيم شأنها وفضيلة واصليها .. ولا خلاف فى أن صلة الرحم واجبة فى الجملة ، وقطيعتها معصية كبيرة .. والأحاديث فى الباب تشهد لهذا ، ولكن الصلة درجات ، وبعضها أرفع من بعض ، وأدناها ترك المهاجرة ، وصلتها بالكلام ولو بالسلام ، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة ، فمنها واجب ، ومنها مستحب ، ولو وصل بعض الصلة ولم يصل الى غايتها لا يسمى قاطعا ، ولو قصر عما يقدر عليه وينبغى له لم يسم واصلا »(2) .

* * *

(1) الاسراء : ٢٦

(2) انظر : شرح النووى على مسلم جـ ١٦ ص ١١٢ ، ١١٣ ، وانظر ايضا : المجتمع الاسلامى وبناء الأسرة ـ محمد الصادق عفيفى ص١٩٧ـ٢٠١

مراجـع الفصـل الثـانى

١ ــ الأخلاق الاسلامية ــ عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى .

٢ ــ القرآن الكريم .

٣ ــ صحيح البخارى .

٤ ــ صحيح مسـلم .

٥ ــ سـنن الترمذى .

٦ ــ الأدب المفرد ــ للبخارى .

٧ ــ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ــ الهيثمى .

٨ ــ الترغيب والترهيب ــ المنذرى .

٩ ــ بر الوالدين ــ عبد الرءوف الحناوى .

١٠ ــ نيل الأوطار ــ الشوكانى .

١١ ــ احياء علوم الدين ــ الغزالى .

١٢ ــ سـنن أبى داود .

١٣ ــ منهاج التربية الصالحة ــ أحمد عز الدين البيانونى .

١٤ ــ المستدرك على الصحيحين ــ الحاكم النيسابورى .

١٥ ــ من هدى النبوة ــ كمال الدين الطائى .

١٦ ــ علاقة الآباء بالأبناء فى الشريعة الاسلامية ــ سعاد ابراهيم صـالح .

١٧ ــ أحكام القرطبى .

١٨ ــ تفسير المنار ــ محمد رشيد رضا .

١٩ ــ سـنن الدارقطنى .

٢٠ ــ التاج الجامع الأصول فى أحاديث الرسول .

٢١ ــ سـنن ابن ماجه .

٢٢ ــ مسند الامام أحمد بن حنبل .

٢٣ ــ شرح النووى على صحيح مسلم .

* * *

obeikandi.com